لغز وادي المساخيط



محمود سالم

لغز وادي المساخيط

تأليف

محمود سالم



لغز وادي المساخيط

محمود سالم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: أحمد رحمي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٥٢١ ٠

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٦.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

المحتويات

الطيران ... غَربًا

كانت الطائرة الصغيرة من طراز «دي هافيلاند» تقف وحيدةً في طرف مطار القاهرة الدولي ... ووقف المغامرون الخمسة ينظرون إليها، وكلٌّ منهم يُفكِّر أن هذه الطائرة ستحملهم بعد قليلٍ بعيدًا عن ضجيج القاهرة إلى سكون الصحراء ...

وقال «عاطف» مُقاطعًا: إنها تُشبه عصفورًا صغيرًا بين النسور!

وكان مع «عاطف» كل الحق أن يقول هذا ... فعلى الممرَّات الأُخرى في المطار كانت تقِف مجموعةٌ من الطائرات النفَّاثة العملاقة من طراز «بوينج ٧٤٧» و«تراي ستار» أحدث طائرة رُكَّاب في العالم، و«دي. سي. نساين» الكبيرة ... وفعلًا بدَت الطائرة «الدي هافيلاند» كالكتكوت الصغير بين عددٍ من الديكة والدجاج.

كانوا جميعًا في انتظار خال «تختخ» المهندس الجيولوجي «رضوان» ... الذي عرض عليهم هذه الرحلة إلى الصحراء الغربية لمشاهدة بئر البترول الاستكشافية الجديدة. وقد كانوا جميعًا متشوِّقين إلى إلقاء نظرة على آبار البترول وكيف تُكتشف، فرغم أنهم مرُّوا بعشرات المغامرات والألغاز ... فإنهم لم يُشاهدوا مطلقًا بئرًا للبترول إلا في الصور أو على شاشة التليفزيون.

ونظر «محب» إلى ساعته، ثم قال: الثامنة إلا عشر دقائق!

قال «تختخ»: سيصل خالي في الثامنة تمامًا ... إنه سيمر على مستر «كوكس» مندوب شركة «فيلبس» التي تتولَّى البحث في الصحراء الغربية.

ولم يكَد «تختخ» ينتهي من جملته حتى ظهر المهندس «رضوان» بقامته العملاقة وبشرته التي لوَّحَتها شمس الصحراء، وبجواره ظهَر مستر «كوكس» الأشقر ذو العينَين الزرقاوَين.

وتقدَّم الرجلان، وقام المهندس «رضوان» بواجب تعريف المغامرين الخمسة بالمستر «كوكس» الذي رحَّب بهم قائلًا: لقد رحَّبتُ بفكرة انضمامكم إلينا في هذه الرحلة … إن على شباب مصر أن يتعرَّفوا على وطنهم بمثل هذه الرحلات.

رضوان: هيَّا بنا!

وتقدَّموا جميعًا من الطائرة … وكان عددٌ من رجال الصيانة يكشفون على أجهزة الطائرة المختلفة … وصعد المغامرون ومعهم «زنجر» الذي كان يبدو متردِّدًا قليلًا … فهذه هي المرة الأولى التي يُغادر فيها الأرض إلى السماء.

وحيَّاهم الطيَّار وأغلق باب الطائرة … ثم جلس إلى كرسيه، وبدأَت آلات الطائرة تدور، وقالت «لوزة»: إنها طائرة صغيرة حقًّا … كنتُ أتصوَّر أن مثل هذه الطائرة لم تعُد موجودة!

ردَّ المهندس «رضوان» على هذه الملاحظة قائلًا: إن استخدام الطائرات الصغيرة من هذا الطراز له مَيزة … إنها لا تحتاج إلى مطارٍ لهبوطها … إنها تنزل في أي مكان متسع وبدون برج إرشاد.

نوسة: معنى هذا أنه ليس هناك مطار في الصحراء حيث نذهب!

رضوان: مطلقًا … أرض منبسطة فقط … وتنزل الطائرة!

أخذَت «نوسة» تتأمَّل الطائرة من الداخل … كانَت طائرةً قديمة … حتى إن بعض أجزاء السقف كان مُرقَّعًا … والكراسي من الحديد الصلب … وقد وُضع في وسط الطائرة عدد كبير من أقفاص الخَضراوات والبيض وعلب الزيت والسمن.

وابتسمَت «نوسة» … فلولا أنها متأكِّدة أنها طائرة … لظنَّت أنها عربة كارو من عربات الخضار … أو محل من محلَّات البقالة.

وفي نفس الوقت كان «عاطف» يميل على «محب» قائلًا: من غرائب الصدف أن تكون أول طائرة نركبها … هي هذه البقالة الطائرة!

ابتسم «محب» وقال: معك حق؛ فقد كنتُ أتوقَّع طائرةً ضخمة، ومضيفةً جويةً تبتسم، وأحزمةً تُربط … وإشارات حمراء وخضراء … وهذه الأشياء الظريفة التي نراها في أفلام السينما عندما تُقلع طائرة!

عاطف: إنها تُشبه أوتوبيس ٨٢ الذي يذهب إلى سوق الخضار!

محب: المهم أن تصل بنا إلى وجهتنا.

كان معهم في الطائرة بالإضافة إلى المهندس «رضوان» والمستر «كوكس» ثلاثة رجال آخرون … يجلسون في نهاية الطائرة، وقد انهمكوا في الحديث.

بدأَت سرعة محرِّك الطائرة الوحيد تتزايد ... ثم تحرَّكَت متجهةً إلى نهاية الممر ... ووقفَت قليلًا وقد ارتعد هيكلها القديم، وسارَت مسرعةً إلى نهاية الممر، ثم قفزَت إلى الفضاء.

نظرَت «لوزة» من النافذة المستديرة الضيِّقة ... فوجدَت الأرض تبتعد بسرعة، وأحسَّت ببعض الخوف ... ثم مدَّت وأمسكَت يدها بيد «تختخ» الذي كان يجلس بجوارها، فربت على يدها مشجِّعًا ...

اندفعَت الطائرة إلى الأمام، وحلَّقَت حول المطار، ثم استجمعَت قوَّتها وعاودَت الارتفاع، وأخذَت «لوزة» ترقب عمارات مصر الجديدة وهي تتضاءل تدريجيًّا ... والسيارات وقد أصبحَت في حجم الكتب ... وصعدَت الطائرة مرةً أخرى ... وازداد بُعْد الأرض والمساكن ... وبدَت «القاهرة» مدينةً ضخمةً رائعة ... وأخذَت «لوزة» تنظر هنا وهناك محاوِلةً العثور على المعادي ... لعلَّها ترى منزلهم من هذا الارتفاع ... وقد استطاعَت أن تُحدِّد مكان المعادي ... والتفتَت إلى «نوسة» التي كانَت تجلس خلفها وأشارت إلى المعادي وصاحَت: المعادي!

وسمعها «عاطف» فقال: هل ترَين النملة التي تقف على سور حديقتنا؟

وتضايقَت «لوزة» من هذا التعليق اللاذع ... وواصلَت الطائرة صعودها، ثم استوَت على ارتفاعٍ مُعيَّن، واندفعَت تسير فوق مجرى النيل.

قال «تختخ» لخاله «رضوان»: إننا نتجه إلى الصعيد وليس إلى الصحراء!

ردَّ «رضوان»: هذا هو خط السير فوق النيل حتى قرب الأقصر ... ثم ننحرف غربًا إلى الصحراء.

ومضَت الطائرة الصغيرة تشق طريقها فوق المساحات الخضراء من مجرى النيل.

وأحسَّت «لوزة» أن الطائرة لا تُغادر مكانها ... فقد كان المشهد الذي تحتها لا يتغيَّر، وخوفًا من تعليقٍ لاذع من «عاطف» ... مالَت على «تختخ»، وهمسَت في أذنه بملاحظتها، فقال «تختخ» مبتسمًا: من الصعب أن يتغيَّر المشهد سريعًا على هذا الارتفاع ... ومن ناحيةٍ أخرى ... فإن السرعة تبدو واضحةً عند مقارنة شيء متحرِّك بشيءٍ ثابت ... فنحن نُحس سرعة القطار ... عندما نمر بأعمدة التليفون ... أكثر ممَّا لو أغلقنا النافذة.

وهزَّت «لوزة» رأسها موافقة ... فقد لاحظَت ذلك فعلًا عندما كانَت تركب القطار أو السيارة في الطريق الزراعي.

مضَت نحو ساعة والطائرة ما زالت فوق وادي النيل الأخضر ... ثم بدأَت تُغيِّر اتجاهها إلى الغرب ... ولاحظَت «لوزة» ذلك ... وبدأَت تُطل على الصحراء المترامية، وأدركَت أنهم يقتربون من هدفهم.

وتذكَّرَت «لوزة» كيف بدأَت هذه الدعوة لزيارة الصحراء ... فقد كان مُقرَّرًا أن يُسافر «تختخ» وحده ... ولكنه رفض أن يُسافر إلا إذا سافر بقية المغامرين معه ... وكيف تمَّ الاتصال بين عائلات المغامرين الخمسة حتى حصلوا جميعًا على الموافقة بالسفر مع «تختخ» على أساس أنهم سيقضون ليلتَين فقط، ثم تعود بهم الطائرة إلى «القاهرة».

شيئًا فشيئًا ابتعدوا تمامًا عن الشريط الأخضر ... وغاصَت الطائرة في سماء الصحراء ... كانَت الطائرة الصغيرة تتعرَّض للاهتزاز بين فترة وأخرى عندما تُقابل المطبات الجوية الناشئة عن تخلخل الهواء ... وهكذا ... عندما اهتزَّت في لحظةٍ كانَت «لوزة» تقف فيها لتربت على ظهر «زنجر» الذي كان ينبح بهدوءٍ مشوبٍ بالحزن ... ظنَّت «لوزة» أنها هزة مثل بقية الهزَّات التي تعرَّضَت لها الطائرة خلال التسعين دقيقةً السابقة ... ولكن الهزة هذه المرة كانَت أقوى ... حتى إن «لوزة» أسرعَت إلى كرسيها والتصقَت به ... وأمسكَت بمسند المقعد الأمامي حتى لا تسقط ... وانتظرَت «لوزة» أن تعتدل الطائرة ... ولكن الهزة استمرَّت ... وكأن الطائرة سيارة تسير على طريق غير ممهَّد!

التفتَت «لوزة» إلى «تختخ»، فابتسم لها ابتسامةً مُشجِّعة ... وفي هذه اللحظة سمع كلُّ من في الطائرة صوت المحرِّك يتغيَّر ... بدلًا من الصوت الرتيب المرتفع الذي كان يصدر عنه ... بدأ الصوت يرتفع وينخفض في غير انتظام.

لم يكن بين «كابينة» القيادة وبقية الطائرة باب مغلق كالطائرات الكبيرة ... لهذا كان صوت المحرِّك واضحًا ... وكانَت «لوزة» تستطيع من مقعدها أن ترى ذراع الطيَّار وجزءًا من رأسه.

استمرَّ صوت المحرِّك المتقطِّع فترةً من الوقت ... وبدا واضحًا أن شيئًا ما قد حدث ... وقام مستر «كوكس» ... ثم المهندس «رضوان» ودخلا «كابينة» القيادة، وتبادل المغامرون الخمسة النظرات.

وظهر المهندس «رضوان» بعد قليل ... كان وجهه مُتصلِّبًا، وبدا واضحًا أنه أدرك أن شيئًا خطيرًا قد حدث ... ولكن عندما التقَت عيناه بعيون المغامرين ابتسم ابتسامةً مُشجِّعة، واقترب من «تختخ» وقال له: ثمَّة خلل في المحرِّك ... ولكن ليس هناك خطر.

مضَت بضع دقائق وما زال الاضطراب يسود صوت المحرِّك، وأخذَت الطائرة تترنَّح في الجو ... وظهر المستر «كوكس» وقال: سنهبط هبوطًا اضطراريًّا.

ونظرَت «لوزة» إلى «تختخ» ... ولكنه لم يتكلَّم ... لقد أصبح الموقف خطيرًا حقًّا ...

وقالَت «لوزة»: ماذا يقصد؟

ردَّ «تختخ»: سنهبط الآن ... بعيدًا عن المكان الذي كان مُقرَّرًا أن نهبط فيه. سكتَ المحرِّك وأخذَت الطائرة تهبط بسرعةٍ غير منتظمة ... وساد الصمت داخل الطائرة فلم يتحدَّث أحد ... وتشبَّث كلُّ راكبٍ بمقعده حتى لا يقع ... ونظرَت «لوزة» ورأَت الأرضَ تقترب منهم بسرعة مخيفة ... فأغمضَت عينَيها ومضَت تقرأ بعض آياتٍ من القرآن الكريم.

مجموعة من الاحتمالات

لمسَت العجلات رمال الصحراء ... ومضَت الطائرة تقفز على الأرض كعصفور أعرج، ثم دارَت بشدة، وتوقَّف صوت المحرِّك ... وهدأ كل شيء فجأة، وساد صمت ثقيل ... ثم خرج الطيار من كابينته ... كان شاحب الوجه قليلًا ولكنه يبتسم، وقال: كل شيء على ما يرام.

تنفَّس الجميع الصُّعَداء، وقال المهندس «رضوان»: أين نحن الآن؟

ردَّ الطيار: في نقطة تبعد عن واحة «سيوة» بنحو ثلاثين كيلومترًا، وبعيدًا عن بئر البترول بنفس المسافة تقريبًا.

كوكس: هل جهاز اللاسلكي يعمل؟

الطيار: للأسف إنه تعطَّل منذ بداية عطل المحرِّك، ولكن من الممكن إصلاحه.

وفتح الطيار باب الطائرة ... وتحرَّك الجميع خارجين ... ونظرَت «نوسة» وهي تقف على باب الطائرة إلى ما حولها ... لم يكُن هناك شيء سوى الرمال، والشمس، ولا شيء آخر.

قال الطيار: أرجو ألَّا يبتعد أحد ...

وظهر الرجال الثلاثة الذين كانوا يجلسون في نهاية الطائرة، وقال المهندس «رضوان»: الزملاء «شهاب»، و«قدري»، و«رياض» من عمال البريمة.

لوزة: بريمة؟!

رضوان: إنها آلة الحفر الكبيرة التي تحفر الأرض بحثًا عن البترول ... ونُسمِّيها البريمة ... لأنها فعلًا تُشبه البريمة التي نفتح بها الزجاجات، وتعمل بنفس الطريقة ... وليس هناك فارق سوى الحجم.

وقف «كوكس» و«رضوان» والطيار تحت مقدمة الطائرة يتحدَّثون ... ووقف المغامرون الخمسة عند الذيل ومعهم «زنجر». كانوا جميعًا يُفكِّرون في هذا الذي حدث على

غير انتظار، وكيف وجدوا أنفسهم في هذه الصحراء القاحلة ... بعد مغامرةٍ مثيرةٍ بطائرةٍ صغيرةٍ كادَت تسقط في لحظة، وينتهي كل شيء!

أخذوا ينظرون حولهم ... لم تكن هناك سوى تلال الرمال تعلو وتهبط في كل اتجاه ... والشمس في السماء تُطل من بعيدٍ وتُرسل أشعَّتها الحارقة على الرمال الساكنة ... لم يكن هناك عصفور ولا شجر ... ولا حيوان ... ولا أثر لأي حياة!

قالت «لوزة» فجأة: كم تتوقَّعون أن يطول بقاؤنا هنا؟

لم يردَّ أحد، ولكن «عاطف» استردَّ روحه المرحة بسرعة وقال: من الممكن أن نبقى هنا إلى الأبد ... ونُكوِّن قبيلةً نُسمِّيها قبيلة المغامرين الخمسة.

لم يضحك أحد ... حتى «عاطف» نفسه لم يستطِع الابتسام ... لقد مرُّوا بدقائق عصيبة في الطائرة ... ولكن ربما كانَت الساعات أو الأيام المقبلة أسوأ ... ولاحظوا أن «كوكس» و«رضوان» والطيار قد دخلوا الطائرة، ثم عاد الطيار وحده ومعه حقيبة بها بعض الأدوات ... وأنه صعد إلى سطح الطائرة وفتح بعض أجزاء غطاء المحرِّك، وأخذ يعمل.

وخرج المهندس «رضوان» من الطائرة وأقبل ناحية الأصدقاء وقال: ما رأيكم؟

ردَّ «محب»: في أيِّ شيء؟

رضوان: فيما حدث؟

نوسة: إنها مسألة ممكن أن تتعرَّض لها أية طائرة.

رضوان: الحمد لله لم يحدث شيء ... وسنُحاول إصلاح اللاسلكي والاتصال بمعسكر العمل عند بئر البترول، والاتصال أيضًا بمطار القاهرة لإخطاره بما حدثَ.

تختخ: وإذا لم تتمكَّنوا من إصلاح جهاز اللاسلكي؟

رضوان: من الممكن السير حتى المعسكر ... المسافة ليست بعيدةً جدًّا، وسيكون السير ليلًا ... وعلى كل حالٍ لقد كان «الطيار» على اتصالٍ بالمطار حتى دخول الصحراء ... وأعتقد أنهم سيُرسلون طائرةً للبحث عنا ... وسيكون من الممكن العثور علينا بعد أن يسألوا الشركة عن مكان البئر.

محب: والطائرة نفسها ... أليس من الممكن إصلاحها؟

رضوان: الطيار يُحاول إصلاح المحرِّك الآن. و«كوكس» يُحاول إصلاح اللاسلكي فله دراية لا بأس بها بأجهزة اللاسلكي.

ومضى الوقت دون أن يحدث شيء، وبدا كل شيء مملًّا وقاسيًا في درجة الحرارة العالية ... وفي الصمت ... وفي منظر الرمال الممتدَّة إلى ما لا نهاية. وحان موعد الغداء ...

ولحسن الحظ لم تكن هناك مشكلة في الأكل أو المياه ... فقد كان في الطائرة تموين كبير مرسل إلى العاملين في حقل البترول.

وفي الثانية تمامًا التفَّ كل رجال الطائرة حول كميةٍ من الجبن والخيار والخبز، وجلسوا يأكلون في صمت ... وقال «كوكس»: إننا نأكل طعام الزملاء في معسكر البئر، وكان المفروض أن يكون هذا الطعام عندهم منذ ساعات.

ردَّ المهندس «رضوان»: على كل حال عندهم أطعمة محفوظة ... وكميات إضافية من الماء.

وانتهى الطعام وتفرَّقوا، وجلس «زنجر» وحيدًا عند ذيل الطائرة ... كان المشهد الذي أمامه لا يسر ... فقد اعتاد الحياة في حديقة منزل «عاطف» حيث الخضرة والهواء والماء الوفير ... وهذا اللون الأصفر الذي يُلوِّن كلَّ شيء حوله لا يبعث على الرضا.

وصعد المغامرون الخمسة إلى الطائرة ... ولكن الحرارة داخلها كانَت لا تطاق؛ فغادروها إلى ظلها ... واستلقَوا على الرمال الساخنة ... وقد بدءوا لأول مرة يُحسون بالضيق والملل، ولكن كانوا كعادتهم شجعان فلم يتحدَّثوا عمَّا يشعرون به.

وجاء المساء، وجلس «كوكس» والطيار و«رضوان» يتحدَّثون، واتفقوا على أن تتحرَّك أول بعثة إلى المعسكر بعد أن يبرد الجو ... وقد تقرَّر أن تكون أول بعثة هم العُمَّال الثلاثة، على أن يستمر «كوكس» في محاولة إصلاح جهاز اللاسلكي ... والطيار في محاولة إصلاح المحرِّك ... وعرض «رضوان» أن يذهب مع العُمَّال الثلاثة، ولكن «كوكس» طلب منه أن يبقى ... فإذا فشل العُمَّال الثلاثة في الوصول إلى المعسكر؛ قامت البعثة الثانية وفيها «رضوان».

وعندما مالَت الشمس للمغيب ... تجهَّز العُمَّال الثلاثة ببعض الطعام والماء، وحدَّد لهم الطيار مكانهم، وأشار إلى نجم ظهر في السماء، وطلب منهم أن يكون دائمًا على يسارهم، وتحرَّك الثلاثة بعد أن ودَّعوا بقية الموجودين.

وشيئًا فشيئًا ساد الظلام الصحراء ... وعلى ضوء البطاريات استمرَّت محاولة «كوكس» في إصلاح جهاز اللاسلكي ... واستمرَّت محاولة الطيار في إصلاح المحرِّك، بينما جلس «رضوان» ... مع المغامرين يتحدَّثون.

قال «تختخ» متسائلًا: متى تتوقَّع أن يصل الرجال الثلاثة إلى المعسكر؟

ردَّ «رضون»: إذا ساروا في الطريق الصحيح فسيصلون قرب منتصف الليل، وفي هذه الحالة فمن المتوقَّع أن تصل إلينا بعثة من رجال البئر في الصباح في سيارة جيب.

محب: وبالنسبة للبحث عنا بالطائرات؟

رضوان: أعتقد أن ذلك سيبدأ غدًا صباحًا ... وربما تمكَّنوا في الظهيرة من العثور علينا.

عاطف: إذن ليس لنا هذه الليلة إلا النوم!

ضحك المهندس «رضوان» وقال: وهل كنت تتصوَّر أن تذهب إلى السينما مثلًا؟!

قال «عاطف»: لا ... كنتُ أُريد التفرُّج على التليفزيون.

وضحك الأصدقاء؛ فقد كان المهندس «رضوان» متفائلًا.

وتجوَّلوا قليلًا بعيدًا عن الطائرة ... وظهر القمر في السماء. كان قمرًا صغيرًا بعيدًا أحال رمال الصحراء إلى اللون الفضي الرمادي ... ولكن «نوسة» قالَت: إنه رغم كل شيء يبدو صديقًا ... فهو الشيء الوحيد في هذا السكون والفراغ.

وعوى «زنجر»، وتردَّد صوت عوائه في الصحراء الخالية ... وأحسَّ الجميع بالوحشة في الليل الساكن وهم يتساءلون عن مصيرهم ...

وقال «محب»: لماذا لا نبحث بعيدًا عن الطائرة ... لعلنا نجد شيئًا نتسلَّى به؟

تختخ: من الأفضل ألَّا نبتعد ... فمن السهل أن نتوه في الصحراء ... حيث كل شيء متشابه ... تلال الرمال ولا شيء آخر.

محب: ربما نجد واحةً صغيرةً قريبة!

تختخ: إن الواحات كلها معروفة ... ولو كانَت هنا واحة لعرف الطيار مكانها على الخريطة.

وجلسَت «لوزة» على الرمال ... وجلس بعدها بقية الأصدقاء ... كانَت الطائرة واقفةً أمامهم كشبح ضخم قابع على الأرض ... صامت ساكن، لا حياة فيه ... وفجأةً عوى «زنجر» مرةً أخرى، وتردَّد صدى عوائه في الصمت ... ثم سمع الأصدقاء صوت عواء آخر يأتي من بعيد.

قالت «لوزة»: هل هو صدى عواء «زنجر»؟

ردَّ «محب»: لا ... إنه كلب آخر!

تختخ: ليس كلبًا في الأغلب ... إنما هو ذئب!

نوسة: ذئب؟! وهل في هذه المنطقة القاحلة ذئاب؟

تختخ: بالطبع ... ذئاب وغزلان وأرانب برية، وربما بعض الحيوانات المتوحِّشة الأخرى ... فقد كانت الصحراء الغربية في الماضي تعج بالأسود!

وأرهف المغامرون آذانهم للعواء الذي أخذ يتكرَّر في فترات متقاربة ... وقال «محب»: أعتقد أنه أكثر من ذئب!

نوسة: فلنتحرَّك إلى الطائرة … فقد تكون قافلة من الذئاب الجائعة.

وقام الجميع واتجهوا إلى الطائرة … ووجدوا الرجال الثلاثة «كوكس» و«رضوان» والطيار قد أعدُّوا طعام العشاء، فتناولوه جميعًا في صمت … وصدى عواء الذئاب يتردَّد بين الحين والحين … ويرد عليه «زنجر» … بنباحه العميق الذي يُشبه العواء.

وأمضَوا فترات من الوقت بعد العشاء يتحدَّثون … وكانت كل الأحاديث تدور حول ما سيحدث صباحًا … هل تأتيهم النجدة من على الأرض … أم من السماء؟

وقال الطيار: إذا جاءَت طائرة فإنها لن تستطيع الهبوط في هذا المكان … لقد هبطتُ هبوطًا اضطراريًّا لتوقُّف المحرِّك … والحمد لله أن لم نُصَب بسوء … ولكن أي طائرة أخرى لن تُغامر بالنزول هنا … سيختار قائدها مكانًا أكثر اتساعًا واستواءً.

كوكس: على كل حال لننتظر ونرى.

وقاموا جميعًا للنوم … وكان المهندس «رضوان» قد وضع المأكولات جانبًا، ووسَّع المكان بحيث يجد كلٌّ منهم موضعًا لنومه.

ظلَّت «لوزة» فترةً طويلةً لا تنام … كانَت بجوارها «نوسة» … فحاولَت أن تُحدِّثها، ولكن «نوسة» كانَت مستسلمةً للنوم … وأخذَت «لوزة» تُفكِّر في الغد وطمأنَت نفسها على أنهم سيستيقظون في الصباح على صوت بعثة الإنقاذ التي أتَت من معسكر البترول … وعلى هذا الحلم المتفائل استسلمَت للنوم.

واستيقظَت «لوزة» في الصباح … ولكن حلمها الجميل لم يكن قد تحقَّق … فقد وجدَت الجميع قد سبقوها إلى الخروج من الطائرة … فأسرعَت تنزل هي الأخرى … ولكن كم كانت دهشتها وضيقها عندما وجدَتهم جميعًا يقفون … ولا أحد معهم وهم ينظرون هنا وهناك بحثًا عن شخص أو حتى عن خيال!

نظرَت «لوزة» إلى «تختخ». كان يضع يده فوق عينَيه وينظر كما ينظر الجميع، وأسرعَت تقف بجانبه وقالَت: ألم يظهر أحد؟

تختخ: لا … لم يظهر أحد.

لوزة: ولا الطائرة؟!

تختخ: ولا الطائرة … لا شيء إلا آثار عشراتٍ من الذئاب تجمَّعَت حول الطائرة في الليل.

في صندوق الحديد الساخن

كانت كلمة الذئاب كافيةً لكي يُحس المغامرون الخمسة برِعدة ... إن وجود هذا العدد الكبير من الذئاب في هذه المنطقة قد يعني أن الرجال الثلاثة قد يذهبون ضحيةً لقطيع الذئاب ... ومعنى ذلك أنهم إذا أرادوا أن يتحرَّكوا من مكانهم في اتجاه معسكر البترول ... فعليهم أن يتحرَّكوا نهارًا ... في قيظ الصحراء اللافح، وفي الشمس الملتهبة المسلَّطة على الرمال.

وقال المهندس «رضوان»: شيء غريب أنهم لم يبحثوا عنا بعدُ بواسطة الطائرات حتى الآن!

ردَّ الطيار: لقد تعطَّل جهاز اللاسلكي وأنا ما زلت فوق النيل قرب انحرافنا مباشرة، وأعتقد أنهم لن يصلوا إلى مكاننا إلا في المساء.

وصمت الطيار لحظات، ثم قال: وربما ظنوا أننا هبطنا في مكاننا العادي ... وقد لا يبدءون البحث عنا إلا غدًا ... عندما لا نعود في موعدنا!

قال «كوكس»: إذن نتحرَّك فورًا!

نظر «رضوان» إلى المغامرين الخمسة ... يسألهم رأيهم ... وربما يسألهم أيضًا إذا كان في إمكانهم أن يقطعوا هذه المسافة الطويلة مشيًا على الأقدام ... وقد أجاب «تختخ» قائلًا: نستطيع طبعًا أن نمشي هذه المسافة.

كوكس: إذن هيَّا بنا!

رضوان: سنأخذ معنا بعض الطعام والماء ... فسوف نعطش ... ونحن لا ندري كم من الوقت سنقضي قبل أن نصل إلى المعسكر.

محب: سأصعد لتجهيز الماء والطعام أنا و«عاطف».

وأسرع الولدان يتسلَّقان سُلَّم الطائرة ... وتبعتهما «نوسة» و«لوزة»، ووقف الباقون في ظل الطائرة ... ينظرون إلى تلال الرمال المحيطة بهم ... وكلٌّ منهم يُفكِّر كيف سيقطعون المسافة في هذا الحر.

بعد نحو نصف ساعة نزل «محب» يحمل كيسًا به الطعام ... ثم تبعه «عاطف» يحمل إناءً من البلاستيك به الماء ... ثم ظهرَت «نوسة» وخلفها «لوزة».

نزل «محب»، ثم نزل «عاطف»، ووضعَت «نوسة» قدمها على أول السلم، ولكن فجأةً وهي تنزل قدمها الأخرى فقدَت توازنها ... ودون أن يتمكَّن أحد من عمل شيء كانت قد وقعت على السلَّم وتدحرجَت حتى سقطَت على الأرض.

اندفع «محب» و«عاطف» إليها، ثم تبعهما الباقون ... والتفُّوا جميعًا حول «نوسة» التي بدا وجهها شاحبًا ومتوتِّرًا من فرط الألم وهي تضغط على شفتَيها حتى لا تنطلق منها آهة واحدة.

أخذ مستر «كوكس» يفحص «نوسة» وهي تُشير إلى قدمها ... وخلع الرجل حذاءها مسرعًا، ثم أخذ يختبر أصابعها ... كان يجذب كل إصبع، ثم يثنيه برفق ... وفي كل مرة كان وجه «نوسة» يطفر منه العرق ... ويتزايد ضغط أسنانها على شفتَيها، ثم قال «كوكس»: لقد الْتوَت قدمها الْتواءً قويًّا ... وأعتقد أنها ستتورَّم بسرعة، ويجب أن ترتاح ولا تتحرَّك من مكانها ... ولحسن الحظ ليس هناك كسر.

ساعدها المهندس «رضوان» و«تختخ» للوصول إلى ظل الطائرة، ومدَّداها على الرمال ... وأحاط بها الأصدقاء وقد بدا على وجوههم الجزع ... فقالت «نوسة» وهي تنتزع ابتسامةً من وجهها المتألِّم: أنا بخير ... لا داعي للقلق.

قالَت «لوزة» وهي تحتضنها في حنان: أنت على ما يرام!

وقف الرجال الثلاثة يتحدَّثون ... وكان واضحًا أن تحرُّكهم الآن أصبح مستحيلًا بعد إصابة «نوسة» ... وأن عليهم أن يُفكِّروا في حلٍّ آخر ... وقد وصلوا إليه سريعًا ... أن يتحرَّك «كوكس» والطيار للوصول إلى معسكر البترول ... على أن يبقى «رضوان» مع الأصدقاء الخمسة.

وتوجه «رضوان» إلى الأصدقاء وقال: كيف حالكِ الآن يا «نوسة»؟

نوسة: الحمد لله ... إنني على ما يرام.

كان وجه المهندس «رضوان» يعكس ما يحس به من قلق ... فهو مسئول عن الأصدقاء الخمسة لأنه هو الذي دعاهم إلى الرحلة ... والآن وقد أصبحوا في مأزق بسبب هبوطهم

الاضطراري ... ثم خروج الرجال الثلاثة دون أن يعودوا، ثم إصابة «نوسة» المفاجئة ... كل ذلك أشعره بقلقٍ بالغٍ لم يستطِع إخفاءه وهو يقف بين الأصدقاء ... فقد كان ينظر هنا وهناك، وقد بدا عليه التفكير العميق.

قال «تختخ»: يا خالي ... إنني أراكَ قلقًا جدًّا ... فإذا كان هذا القلق من أجلنا، فأرجوكَ أن تعرف أننا تمرَّنا بما فيه الكفاية على مواجهة المخاطر والمآزق، فلا تخشَ شيئًا علينا.

قال المهندس «رضوان»: إنني آسف جدًّا لهذه الظروف الغريبة!

تختخ: مطلقًا، لماذا تأسف يا خالي؟! ... لقد تفضَّلتَ بدعوتنا إلى رحلة الصحراء ... وقد وافقنا ... نتحمَّل معكم أي ظروف تمر بنا.

رضوان: إنني ...

تختخ: أنت رجل طيب يا خالي ... ونحن سعداء جدًّا بهذه الرفقة.

تدخَّل «محب» في الحديث قائلًا: قد يُدهشكَ أن تعلم يا سيادة المهندس أنني أعتقد أن أي رحلة لا يمكن أن تكون ممتعةً إلا إذا حدثَت فيها مشاكل ومتاعب نتغلَّب عليها ... وكلما سافرتُ في رحلة تمنَّيتُ أن يحدث شيء مثير، وهبوط الطائرة جعل هذه الرحلة مثيرةً حقًّا.

ابتسم «رضوان» وقال: إنكم أولاد مدهشون!

ثم صمت لحظات، وقال: سوف يسير «كوكس» والطيار «حسني» الآن إلى المعسكر وسأبقى معكم.

تختخ: ولماذا تبقى معنا؟ ... إن بإمكاننا أن نهتم بشئوننا.

رضوان: لا ... من الأفضل أن أبقى ... خاصةً بعد إصابة «نوسة».

تختخ: إن «نوسة» سوف تُشفى ... وسوف تعودون أنتم قرب المساء، أو يأتي من المعسكر من ترسلونهم.

رضوان: سأبقى معكم ... ويكفي أن يذهب «كوكس» و«حسني»، وسوف يُرسلون لنا من المعسكر بعثةً من الرجال.

كان واضحًا أن أي مناقشة مع «رضوان» غير مجدية، فصمت «تختخ» احترامًا لإصرار خاله، واتجه «رضوان» إلى «كوكس» و«حسني» وتحدَّث معهما لحظات ... وجاء الاثنان فسلَّما على الأصدقاء، ثم انطلقا، وبعد لحظات غابا وراء أحد التلال الرملية. لم يبقَ من رُكَّاب الطائرة غير المغامرين الخمسة و«زنجر» و«رضوان»، ولم يكن حولهم إلا بحر الرمال الكبير، وهو جزء من أكبر صحراء في العالم، وهي الصحراء الغربية التي تمتد من محاذاة النيل إلى المحيط الأطلسي غربًا.

صعد «رضوان» إلى الطائرة ... وبقي الأصدقاء حول «نوسة» ... لم يكن عندهم شيء يتحدَّثون فيه؛ فسادهم الصمت.

كان كلٌّ منهم يُفكِّر فيما حدث وفيما يمكن أن يحدث ... لم يكن الموقف مُشجِّعًا جدًّا، ولكن المغامرين كان عندهم من الصلابة ما يكفي لمواجهة أي موقف.

كان «زنجر» أكثرهم ضِيقًا ... فهو لا يحب هذه المساحات الواسعة الصفراء من الرمال، حيث لا شيء على الإطلاق يمكن أن يراه ... لا قطة يُشاكسها ولا كلب يلعب معه ... ولا حتى الشاويش «علي» ليُعاكسه ... شيء ممل هذا الصمت ... وهذه الرمال.

وبدأَت ريح خفيفة تهب تدريجيًّا ... تحوَّلَت بعد لحظات إلى عاصفة رملية أخذَت تلسع أجسام الأصدقاء بحبات الرمل، فأسرعوا يحملون «نوسة» ويصعدون إلى الطائرة، وأغلقوا الباب.

كانت الطائرة من الداخل ساخنة ... بل شديدة السخونة كأنها فرن ... وكانت ضيِّقةً كأنها صندوق من الحديد ... وتمدَّد الأصدقاء على المقاعد الحديدية الضيِّقة ينظرون من النوافذ الضيقة المستديرة إلى العاصفة في الخارج، وقد أصبحَت أشد عنفًا. وأخذَت الرمال والحصى تدق جدران الطائرة وكأنها آلاف من الأيدي الصغيرة ... وكانَت «نوسة» مستلقيةً على أرضية الطائرة على قطعةٍ من القماش ... وقد اشتدَّ الألم في قدمها الملتوية ... وتمنَّت في هذه اللحظة أن تجِد نفسها في فراشها ... ومعها زجاجة من «البيبسي كولا» الباردة، ولكنه كان بالطبع حلمًا بعيد التحقيق.

كان الوقت يمضي بطيئًا ومملًّا ... وكل واحد ينظر إلى ساعته بين لحظة وأخرى، وبدَت العقارب وكأنها لا تتحرَّك ... وفجأةً قال «عاطف»: ماذا حدث؟ إننا كمن يجلس في مأتم ... ومن المؤسف أننا جميعًا نسينا إحضار جهاز راديو أو «ريكوردر» معنا.

لم يردَّ أحد ... فقام «عاطف» ومدَّ يده في حقيبته فأخرج صندوقًا صغيرًا من الورق المقوَّى، أخرج منه الشطرنج وأوراق الكوتشينة وقال: هيَّا بنا نلعب دورًا.

واستجاب الأصدقاء له ... وترك المهندس «رضوان» مكانه في مقدمة الطائرة وجاء هو الآخر وانضمَّ إليهم.

اختار المهندس «رضوان» «عاطف» زميلًا له، وكان المنافسان هما «تختخ» و«محب» ... وجلسَت «لوزة» و«نوسة» تتفرَّجان، وقد بدأ شوط من لعبة الكوتشينة المعروفة (البصرة). ولم تمضِ سوى دقائق حتى احتدم الصراع بين الأربعة وارتفعَت الصيحات ... ونسي الجميع في هذه اللحظات ما مرَّ — وما يمر — بهم من أحداث ... وانهمكوا في اللعب

والمشاهدة ... وأخذَت تعليقات «عاطف» تُثير الضحكات. واستطاع «تختخ» و«محب» أن يكسبا أول جولة في اللعب ... ولكن «رضوان» و«عاطف» كسبا الجولة الثانية ... وأصبح من الضروري اللعب شوطًا ثالثًا لتحديد الفريق الفائز، وأخذَت الأيدي ترتفع وتهبط في قوة ... وكلمات التحدِّي تُطلَق من هنا وهناك، ولكن فجأة — وقبل أن ينتهي الشوط — قالت «لوزة» وهي تتلفَّت حولها: أين «زنجر»؟

هبطَت الكلمات كأنها ماء بارد على نار ... فصمت الجميع، وتلفَّتوا حولهم ... ولم يكن هناك أثر للكلب الأسود في الطائرة!

سر المنديل الأحمر

مرَّت لحظات صمت مؤلمة ... توقَّف اللعب ... دارَت العيون في الطائرة ... كان واضحًا جدًّا طبعًا أن «زنجر» غير موجود، لقد نسوه في الخارج عند هبوب العاصفة.

وكانَت العاصفة ما زالَت مستمرَّةً في الخارج أشد عنفًا ممَّا كانَت ... والرمال والحصى تدق هيكل الطائرة ... وأسرع «محب» إلى إحدى النوافذ الزجاجية ونظر إلى الخارج، ولكن الرؤية كانت مستحيلة ... فلم يكن هناك سوى ضبابٍ كثيفٍ من الرمال أحال الجو إلى اللون البني حيث تنعدم الرؤية.

وقفوا جميعًا داخل الطائرة يُفكِّرون فيما يجب عمله ... إن الخروج في العاصفة شبه مستحيل ... ولكن لم يكن هناك حل آخر ... وأسرع «تختخ» إلى باب الطائرة يفتحه، ولم يكد القفل ذو الذراع يدور حتى ضغطَت الرياح على الباب ففتحَته، وكاد يُلقَى ب «تختخ» على الأرض ... واندفعَت الرياح تحمل الرمال إلى داخل الطائرة، وأخذ «تختخ» و«محب» و«رضوان» ... يُكافحون من أجل الخروج ... وحاولَت «لوزة» أن تلحق بهم، ولكن الرياح دفعَتها كأنها ريشة صغيرة ... فأمسكَت بأحد المقاعد حتى لا تقع.

أنزل الثلاثة السلَّم ... ونزل «تختخ» أولًا ... كانت الرمال تلسعه في كل مكان في جسمه ... وتملأ عينَيه وفمه ... فأخرج منديله وربطه على فمه وأنفه ... وكذلك فعل «رضوان» و«محب» ... ونزل الثلاثة إلى الأرض وأخذوا ينظرون حولهم، لم يكن هناك أثر ﻟ «زنجر» حول الطائرة ... واندفع «تختخ» يسير إلى حيث كانوا يجلسون ... ولكن لم يكن «زنجر» هناك، وفي نفس الوقت أخذَت الرياح تقذف بالثلاثة في كل اتجاه ... ولم يكن أمامهم ما يمكن عمله إلا العودة إلى الطائرة ... ولم تكُن هذه بالمهمة السهلة ... فقد كانَت العاصفة تقذف بهم بعيدًا ... وفكَّر «تختخ» أن الحل الأفضل هو الزحف على الأرض ... رغم الحصى والرمال التي كانَت أكثر قربًا من سطح الأرض ... وأخيرًا تمكَّنوا من دخول الطائرة ...

وكافح الثلاثة كفاحًا عنيفًا حتى تمكَّنوا من إغلاق بابها ... ثم وقفوا خلفه يلهثون وقد امتلأَت عيونهم وأُنوفهم بالرمال، وتصبَّب العرق من أجسامهم ... ولأول مرة في هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر والمواقف الغامضة أحسَّ «تختخ» بالضيق والتعاسة ... ففي الأغلب أن «زنجر» قد فُقِد ... إمَّا أن تقتله العاصفة الرملية وتدفنه في الرمال ... وإمَّا أن يقع فريسةً لعصابة الذئاب التي تُحيط بالمنطقة!

كانَت خسارةً فادحةً بالنسبة للمغامرين الخمسة أن يفقدوا «زنجر» ... أكثر من هذا كان فقده بالنسبة لـ «تختخ» كارثةً لا يمكن احتمالها ... لقد كان صديقه ورفيقه سنوات طويلة.

وجلس الجميع صامتين ... وتمدَّد المهندس «رضوان» على أرض الطائرة، ولم تمضِ سوى لحظات حتى استغرق في النوم ... وأحاط المغامرون الخمسة بـ «نوسة»، ولم يتحدَّث أحد ... حتى «عاطف» لم يجد في نفسه ميلًا للحديث ... وعندما حان موعد الغداء قام «عاطف» و«محب» و«لوزة» بإعداده ... بينما جلس «تختخ» يُحدِّث «نوسة» قائلًا: إنني قلق من أجل الثلاثة الذين خرجوا أمس ... لقد تأخَّرَت عودتهم ... ولم يصل أحد ... أخشى أن تكون الذئاب ...

وقبل أن يُتم جملته قالَت «نوسة»: ربما ضلوا الطريق!

تختخ: هذا ممكن.

نوسة: ولكن الطائرات التي كان من المفروض أن تخرج للبحث عنا ... لماذا لم تحضر؟

تختخ: لا أدري ... ولكن ربما ظنوا أننا وصلنا كما قال الطيار ... وقد يبدءون في البحث عنا غدًا.

نوسة: ولكن الطائرات لا تستطيع النزول في هذا المكان!

تختخ: بالطبع لا ... ولكن سيكون من الممكن إرسال قافلة سيارات من واحة «سيوة» تأتي لنجدتنا.

وجاءت «لوزة» تحمل الطعام إلى «نوسة» ... بعض الساندويتشات من الجبن، وبعض الخيار والطماطم.

قال «محب»: هل نوقظ المهندس «رضوان»؟

تختخ: دَعه نائمًا ... فالنوم في هذه الظروف أفضل من الطعام.

وكان تناول الطعام مهمةً صعبةً في جو الرمال والحرارة ... خاصةً بالنسبة لـ «تختخ» و«محب»، ولم يكُن هناك حلٌّ إلا بلع اللقمة مع كميةٍ من الماء ... وكان الماء ساخنًا لشدة

الحرارة المسلَّطة على خزَّان المياه في الطائرة … ومن المؤكَّد أن المغامرين الخمسة لم يمرُّوا بظروفٍ أسوأ من هذه الظروف … خاصةً وفقْد «زنجر» يُسبِّب لهم جميعًا نوعًا من اليأس لم يألفوه … فقد كان «زنجر» بالنسبة لهم يعني الكثير … خاصةً في أوقات الشدة والأزمات.

وكانَت «لوزة» وهي تتناول طعامها كلما تذكَّرَت «زنجر» توقَّفت اللقمة في زورها المسدود … وانتهى الطعام … واستلقى المغامرون … بعضهم على المقاعد … وبعضهم على أرضية الطائرة … وما زالَت العاصفة الرملية في الخارج تزأر …

ومضَت الساعات بطيئةً مملة … وبدأَت العاصفة تهدأ تدريجيًّا، وعندما أوشكَت الشمس على الاختفاء … فتح «تختخ» باب الطائرة … ونزل وخلفه «محب» والمهندس «رضوان» الذي استيقظ بعد أن نام ثلاث ساعات كاملة … ثم نزل «عاطف»، وبقيت «لوزة» بجوار «نوسة».

أخذ «تختخ» ينظر حوله. لم يكن هناك أمل أن يجد آثارًا تركها «زنجر» على الرمال … فقد مسحَت العاصفة كل شيء، حتى شكل التلال المحيطة بالطائرة قد تغيَّر … إمَّا بالنقص أو الزيادة … أمَّا الطائرة نفسها فقد غاصَت عجلاتها في الرمال … وأصبح من الواضح أن أي محاولةٍ لتحريكها من مكانها تحتاج إلى جهدٍ كبير … ورغم إحساس الأصدقاء أنهم أصبحوا أسرى الصحراء الواسعة، إلا أن الطقس المنعش بعد اليوم الحار الطويل قد أشعرهم ببعض الراحة.

وفجأة … على الأضواء الأخيرة للشمس الغاربة، بدأَت نقطة سوداء تتحرَّك على تلٍّ بعيد … شاهدها أولًا «عاطف» الذي صاح: شيء يتحرَّك!

وعلى صيحته الْتفتَ الجميع إلى حيث أشار … وانطلقَت من فم «تختخ» كلمة واحدة رنَّت في صمت الصحراء: «زنجر»!

واندفع جاريًا وخلفه «محب» و«عاطف»، واقتربَت النقطة السوداء … ولم تكُن سوى «زنجر» الذي أسرع يرتمي في أحضان «تختخ»، ولاحظ «تختخ» على الفور العرق الذي يُغطِّي شعر الكلب … وأنفاسه المتسارعة … ثم لاحظ شيئًا آخر … قطعة قماشٍ حمراء في فمه!

التفَّ الجميع حول «زنجر» … وأخذ «تختخ» يحتضن الكلب وهو لا يكاد يُصدِّق نفسه أن «زنجر» عاد … ثم برك «محب» و«عاطف» وأخذا يربتان على الكلب في حب … لقد عاد «زنجر»!

قال «محب»: ما هذا الذي في فمه؟

وكأنما أراد «زنجر» أن يردَّ على السؤال ... فأسقط قطعة القماش الحمراء من فمه، وتناولها «عاطف» بأصابعه ونشرها ... كان من الواضح أنها قطعة من منديل كبير أحمر، وبه مُربَّعات صفراء عريضة ... من هذا النوع الذي يستخدمه الفلَّاحون والعمال ... وما يُسمَّى بالمنديل المحلاوي.

كان المهندس «رضوان» قد وصل إلى حيث أحاط الأصدقاء بـ «زنجر»، وشاهد المنديل فقال: هذا منديل أحد العُمَّال الذين كانوا معنا!

محب: العُمَّال الثلاثة الذين رحلوا أمس؟!

رضوان: نعم ... لقد كان معه منديل ... وأنا متأكِّد أنه نفس المنديل؛ لأنه كان مقطوعًا من أحد أطرافه ... وقد سقط منه وناولته له أثناء الرحيل!

ساد الصمت بعد هذه الجملة ... فإن هذا يعني أشياء كثيرة ... وبالنسبة للمغامرين كان يعني دليلًا ... والدليل هو دائمًا بداية لحل أي لغز.

ولأول مرة في هذه المغامرة المملوءة بالمخاطر بدأَت عقول المغامرين تعمل ... منديل أحد العُمَّال أحضره «زنجر» ... يعني أن العامل موجود في مكان قريب، ومعناه أيضًا أن عليهم أن يعرفوا ... لماذا فقد العامل منديله؟! وأين هو؟! وماذا جرى له؟!

ونظر الثلاثة أحدهم إلى الآخر ... فقال «عاطف»: إن على «زنجر» أن يدلنا أين عثر على هذا المنديل.

تختخ: نعم ... ولكن الكلب المسكين مرهق جدًّا ... لا بد من بعض الطعام، وكمية من الماء، وساعة من الراحة، ثم نبدأ الحديث معه.

وعادوا جميعًا في اتجاه الطائرة ... وعندما اقتربوا أطلق «زنجر» نباحًا مبحوحًا ... كأنه يُريد أن يقول لـ «نوسة» و«لوزة» إنه عاد ... ولم تمضِ لحظات حتى ظهرَت «لوزة» على باب الطائرة المفتوح ... ولم تستطِع «لوزة» أن تنطق بكلمةٍ واحدة ... أو حتى تتحرَّك من مكانها ... كل ما فعلَته أن تركَت دموعها التي احتُبسَت طويلًا تتساقط في هدوء.

أسرع «زنجر» يقفز سريعًا ... ثم تسلَّق سُلَّم الطائرة وارتمى على قدمَي «لوزة» التي انحنَت وأخذَت تُقبِّله في سعادة ... وقد نسيَت كلَّ الظروف السيئة التي يمرُّون بها.

فتح «محب» علبةً من اللحم المحفوظ وضعها أمام «زنجر» ... وطبق به كمية من الماء ... واندفع الكلب الجائع يأكل ويشرب ... والأصدقاء ينظرون إليه وقد أحسُّوا جميعًا أن كلَّ شيء أصبح على ما يُرام بعودة «زنجر» ... وبعد أن أكل وشرب استلقى جانبًا،

وقام «تختخ» بتنظيف شعره بفوطة … وغسل وجهه ببعض الماء … وهزَّ «زنجر» ذيله في سعادة … ثم جاء أوان الحساب … فقال «تختخ»: أين كنتَ يا «زنجر»؟ وماذا هذا المنديل؟ من أين أحضرته؟

وهزَّ «زنجر» ذيله … كأنه يعرف الأسئلة التي تأتي بعد العثور على دليل، وكان على استعداد للإجابة …

ماذا حدث في الليل؟ ...

لو كان «زنجر» يستطيع الكلام ... لحلَّ كثيرًا من المشاكل ... ولكن برغم ذلك كان ذكاؤه وخبرته بحلِّ الألغاز الغامضة عونًا كبيرًا للأصدقاء ... لقد عرف «زنجر» الأسئلة التي وُجِّهت إليه ... وكانت الإجابة الوحيدة الممكنة عليها أن يقفز من الطائرة ... وأن يتبعه المغامرون ...

وقد فعل «زنجر» ذلك بالضبط ... ولكن «تختخ» أشار إليه أن يتوقَّف ... إنهم الآن ليسوا في المعادي ... ولا بد من وضع خطةٍ لتأمين سلامتهم في هذه الصحراء الغامضة.

قال «تختخ»: واضح أن «زنجر» سيقودنا إلى المكان الذي عثر فيه على المنديل ... فمن سيذهب؟ ... ومن سيبقى؟

ردَّ «محب»: سأذهب معك ويبقى الآخرون.

تدخَّل المهندس «رضوان» في الحديث قائلًا: إن اختفاء الرجال الثلاثة وربما مستر «كوكس» والطيار «حسني» يجعل التحرُّك بعيدًا عن الطائرة محفوفًا بالمخاطر، خاصةً بعد غروب الشمس ... فلسنا ندري ماذا حدث لهم ... وربما ذهب الخمسة ضحيةً لعصابة الذئاب التي تُحيط بهذا المكان.

وصمت «رضوان» لحظات، ثم قال: لهذا فإنني لا بد أن أشترك معكم في البحث.

أخذ المغامرون يتبادلون النظرات لحظات، ثم قال «محب»: أليس من الأفضل أن يبقى عمي هنا؛ فقد تأتي بعثة الإنقاذ؟

رضوان: لا ... سأذهب معكم ... وإذا حضرَت بعثة الإنقاذ فسوف تبقى حتى أعود ... أمَّا خروجكم وحدكم فمستحيل.

تختخ: في هذه الحالة ستأتي معي أنت و«محب»، ويبقى «عاطف» و«نوسة» و«لوزة» ... وعليهم أن يُغلقوا باب الطائرة؛ فالظلام يهبط ولا ندري ماذا يمكن أن يحدث.

رضوان: إذن هيَّا بنا ... المهم أن يكون كلبكم هذا يعرف ماذا يفعل.

قال «عاطف»: من المؤكَّد أنه يعرف ما يفعل ... أفضل منا.

وابتسم «رضوان» ... فقد كان تعليق «عاطف» يعني ببساطة ... أنهم يتصرَّفون بطريقةٍ خاطئة ... بدليل اختفاء خمسة رجال من المجموعة دون أن يتمكَّنوا من الاتصال بأي مكان يمكن أن يُساعد على إنقاذهم.

وألقى «تختخ» بتعليماته الأخيرة إلى الباقين: أغلقوا باب الطائرة ... هناك احتمال ألَّا نعود ... في هذه الحالة انتظروا وصول طائرة الإنقاذ ... إنها الأمل الوحيد الباقي لنا.

قالَت «لوزة» مرتاعة: احتمال ألَّا تعودوا!

تختخ: احتمال بعيد ... ولكن من الممكن أن يحدث!

وتحرَّك الثلاثة «رضوان» و«تختخ» و«محب» ... وسبقهم «زنجر» فقفز سُلَّم الطائرة سريعًا ... فقد كان يعرف أنه الآن أهم من في الموجودين ... إنه ببساطة مفتاح هذا اللغز العجيب ...

عندما نزل الثلاثة من الطائرة ... كانَت الشمس قد غربَت ... وخلَّفَت وراءها أُفقًا يمتزج فيه اللونان الأحمر والأصفر ... وجوًّا باردًا منعشًا بعد حرِّ اليوم الطويل. وكان القمر الصغير يبدو بعيدًا جدًّا، ولكنه ينبئ بليل نصف مُضاء.

سار «زنجر» مسرعًا وخلفه «رضوان» ثم «محب» و«تختخ» ... وقد اتجه «زنجر» إلى نفس الناحية التي جاء منها ... وبعد دقائق كان قد انثنى يسارًا، ثم صعد تلًّا مرتفعًا ... وتبعه الثلاثة ... وسار «زنجر» بنشاط، وأخذ يصعد ويهبط والثلاثة خلفه وقد أدركهم بعض التعب ... فليس السير في الرمال الناعمة سهلًا ... فالأقدام تغوص في الرمال، وتبذل العضلات مجهودًا مضاعفًا ... ولكنهم على كل حال حافظوا على المسافة بينهم وبين الكلب الأسود المندفع كالسهم ... وأخذ الظلام ينتشر تدريجيًّا ولكن الرؤية ظلَّت متاحة ...

لم يكن «تختخ» يتوقَّع أن يكون المشوار بهذا الطول ... فقال لـ «محب»: إن المسافة أبعد ممَّا توقَّعنا.

محب: لقد غاب «زنجر» فترةً طويلة ... فمن المؤكَّد أن المسافة طويلة.

كان «تختخ» أكثر الثلاثة ... أو الأربعة تعبًا ... فقد كان سمينًا ... وقد أحسَّ بقدمَيه تتحرَّكان بصعوبة بعد سير نشيط استمرَّ نصف ساعة ... وبدأ يتخلَّف قليلًا ...

امتدَّت أشباح الثلاثة على الرمال ... ثم بدأَت تتلاشى تدريجيًّا مع ازدياد هبوط الظلام ... ثم تلاشَت تمامًا ... وشمل الظلام والصمت الصحراء ... وأصبحَت الرؤية متعذِّرة ... ونادى «تختخ» على «زنجر» ... وردَّ الكلب بنباحٍ قصير، فسار «تختخ» في اتجاه الصوت.

بدأَت التلال الرملية ترتفع أكثر فأكثر … وبدا واضحًا أن المنطقة التي يسيرون فيها تُمثِّل هضبةً مرتفعة … وظهرَت بعض الصخور الضخمة الغائصة في الرمال … وزاد ذلك من صعوبة السير … ولم يعُد هناك ما يُنير الطريق سوى ضوء النجوم البعيدة التي اشتدَّ لمعانها … والقمر الصغير الهادي … في جانب الأُفق.

ونتيجةً للمرتفعات الكثيرة … بدأ «رضوان» و«محب» و«تختخ» … يتفرَّقون مرغمين … فقد كان على كلٍّ منهم أن يختار طريقًا سهلًا لقدمَيه … ولم تعُد صِلتهم إلا عن طريق الكلب الأسود الذي لم يعُد واضحًا … ولم يبقَ إلا متابعته عن طريق نباحه الذي يُصدره بين لحظةٍ وأخرى.

أحسَّ «تختخ» بعد هذا السير الطويل أنه لا يستطيع الحركة أكثر، لقد تسارعَت أنفاسه … ورغم الجو الليلي المنعش تصبَّب العرق من جسده … وتوقَّفَت قدماه عن الحركة … فتوقَّف قليلًا يلتقط أنفاسه … وقرَّر أن يجلس لحظات … ولكنه خشي أن يتخلَّف كثيرًا عن «زنجر» و«رضوان» و«محب»، فأخذ يشد قدمَيه … وأطلق صفَّارته لـ «زنجر» ليتوقَّف … ثم توقَّف ليسمع رد «زنجر» … ولكنه لم يسمع شيئًا … عاود إطلاق الصفَّارة في الليل الساكن … ولكن لم تكن هناك إجابة … وأحسَّ بالقلق؛ فوضع يده على فمه ونادى: «محب»!

وانتظر لحظات … ولكنه لم يسمع ردًّا … وزاد قلقه … ماذا حدث؟ هل تخلَّف أكثر من اللازم، أم حدث شيء؟

استجمع كل قواه وأخذ يجري … كانت طبيعة الأرض قد تغيَّرَت تمامًا وامتلأَت بالصخور … ولاحظ «تختخ» أن مرتفعات سوداء تُواجهه كالأشباح، وأنه يدخل شِبه دائرةٍ من التلال الصخرية … واندفع يجري أكثر وهو يُنادي بأنفاس لاهثة … وفجأةً انزلقَت قدمه، وأحسَّ بنفسه يهوي من مكان مرتفع، وأخذ يتدحرج دون أن يتمكَّن من التوقُّف، ثم اصطدمَت رأسه بصخرةٍ بارزة، ودار رأسه، وشاهد القمر البعيد كأنه نحلة تلف … ثم فقد وعيه.

استيقظ «تختخ» على لسعة برد طافَت بجسمه، وشيء رطب يلعق وجهه … فتح عينَيه وطالعه وجه «زنجر». كان مُتجهِّمًا، وقد التصق بعض شعره بكتفه دليل إصابته … أخذ «تختخ» ينظر حوله … كان ضوء الفجر الشاحب يتسلَّل في الأفق البعيد … ووجد نفسه

في حفرة عميقة ... وحوله مرتفعات شاهقة من الصخور الحمراء ... ومدَّ يده يربت رأس «زنجر» ... ثم تذكَّر فجأةً ما حدث أمس ليلًا ... أين «محب» وأين المهندس «رضوان»؟!

نظر هنا وهناك وهو يعتمد على ذراعَيه ليجلس، ولكن لم يكن هناك أحدٌ على الإطلاق ... ونظر إلى «زنجر» الذي طأطأ رأسه، وأخذ يهز ذيله كأنما يُقدِّم اعتذارًا عن خطأ وقع فيه، وقال «تختخ»: أين «محب»؟

زاد رأس «زنجر» انخفاضًا ... وأخذ يُخرج لسانه ويلهث كأنما يقول إنه أيضًا متعب ... وإنه آسف.

تحامل «تختخ» على نفسه ووقف، وأخذ ينظر كيف يستطيع الخروج من هذه الحفرة ... وكيف يستطيع تسلُّق هذه الصخور الشاهقة ... ولفتَ نظره على الفور وجود بعض النباتات الصحراوية ... وأدركَ أنه قريب من مكانٍ به ماء ... وقد كان يُحس بعطش شديد.

ومدَّ يده يتحسَّس رأسه ... كان مصابًا ... ولكن لا نزيف ... وحمد الله ... ثم تحرَّك صاعدًا وهو يتشبَّث بالصخور البارزة ... و«زنجر» يتبعه صامتًا ... كأنما يقول إن هذه المرة لن يكون دليلَ السير.

أخذ «تختخ» يصعد تدريجيًّا ... وكان يتوقَّف بين لحظة وأخرى يستجمع قوته ... حتى إذا أصبح في منتصف الطريق شاهد صخرتَين متقاربتَين بينهما فتحة تُشبه نافذةً مستطيلة ... وتوقَّع أنه إذا نظر منها سيُمكنه أن يرى المنطقة المحيطة ... ولعلَّه يستطيع أن يُحدِّد اتجاهه بالنسبة للطائرة ...

اقترب مُتعثِّرًا من النافذة الصخرية وهو يرجو أن يرى شيئًا يبعث فيه الأمل، حتى إذا اقترب من مكان الصخرتَين أخذ يختار موضع قدمَيه ... فقد كانَت الصخرتان تقفان وحدهما على ارتفاعٍ كبير، ولو سقط هذه المرة فمن المؤكَّد أنه سيتمزَّق على الصخور المدبَّبة.

أخيرًا استطاع أن يجد موضعًا لقدمَيه ... وأطلَّ من خلال النافذة الصخرية، واهتزَّ جسمه فجأة، وكاد يقع على ظهره لولا أنه استطاع في اللحظة الأخيرة أن يُمسك بصخرةٍ ناتئة ... ولم يكن فقدان توازنه يعود إلى قدمَيه ... ولكن إلى ما شاهدَته عيناه ... لقد وقع بصره على أغرب مشهدٍ رآه في حياته ... كان مشهدًا أشبه بالأساطير التي يتحدَّث بها الرواة ... ولولا أنه تأكَّد أن يقظ تمامًا ... لظنَّ أنه يتخيَّل أو يحلم حلمًا أسطوريًّا! ...

ساعات العطش والحر

كان المشهد الذي رآه «تختخ» يُمثِّل شِبه دائرة من التماثيل الجالسة قد تآكلت بفعل العواصف والرمال ... فلم يبقَ منها سوى الشكل العام للتمثال ... ولكن بقية التفاصيل قد مُحيَت ... فلم يبقَ من الرأس والوجه إلا ما يُشبه اليد المقبوضة ... ولم يبقَ من الكتفَين والذراعَين إلا خطوط متعرِّجة ... وبقية الجسم تبدو مُشوَّهة وممسوخة ... ولكن من المؤكَّد أنها تماثيل من صنع الإنسان وليس من صنع الطبيعة ... ولم تُسعف «تختخ» الذاكرة عمَّا إذا كان قد قرأ عن وجود منطقة أثرية في هذا المكان ...

كان المشهد مَهيبًا ورائعًا في ضوء الفجر البازغ ... وقد تناثرَت بين التماثيل وحولها بعض الشجيرات والأعشاب الخضراء ... وخلفها كان حائط صلب مرتفع من الصخور الضخمة ممَّا ذكره بمعبد «أبو سمبل»؛ فهل هذه آثار فرعونية!

لم يكن مُهمًّا بالنسبة لـ «تختخ» هذه اللحظة أن يتذكَّر التاريخ أو لا يتذكَّره ... ولكن الذي كان يُهمُّه في هذه اللحظة ماذا تعني هذه التماثيل بالنسبة له؟! وتجاوز النافذة الصخرية ... ووجد الطريق ينحدر بعدها انحدارًا عموديًّا تجاه دائرة التماثيل، فأخذ ينزل محاذرًا، وخلفه «زنجر» يقفز رغم جراحه، حتى وصلوا إلى ما يُشبه باب الدائرة ... فتوقَّف «تختخ» قليلًا يتأمَّل التماثيل، وقد زادَت التفاصيل وضوحًا، وبدا المشهد يبعث على الرهبة.

مضى «تختخ» يسير أمام التماثيل ... ويتأمَّلها واحدًا واحدًا ... وقد نسي للحظات ما هو فيه ... وأخذ يتفرَّج باستغراق ... ولكن فجأةً أحسَّ بـ «زنجر» يقترب منه، ثم يجذب بنطلونه ... وأدرك أن «زنجر» يُريد أن يُحدِّثه في شيء ما ... فانحنى عليه وأخذ يربت على جسده الذي غطَّته الرمال وآثار الجراح ... ووجد الكلب ينتفض وينظر إليه نظراتٍ أدرك «تختخ» على الفور سرها ... إن ثمَّة خطرًا قريبًا، و«زنجر» لا يُريد أن ينبح حتى لا يُنبِّه مصدر الخطر إلى وجودهما.

كانَت الخطوة التالية أن يختبئ «تختخ» ... حتى يرى ماذا يحدث ... وأسرع خلف أحد التماثيل ووقف، وأسرع «زنجر» يقفز هو الآخر ويقف معه ... ومرَّت لحظات دون أن يحدث شيء ... ثم ظهر من الطرف البعيد للدائرة رأس جمل ... ثم رقبته ... ثم رجل يجلس على سَنام الجمل ...

كانت مفاجأةً كاملةً لـ «تختخ» أن يرى هذا المشهد ... معناه ببساطة أن ثمَّة حياةً قريبةً جدًّا ... واحة أو شيء من هذا القبيل ... فمن غير المعقول أن يكون الرجل مسافرًا وحده إذا كان سيقطع مسافةً بعيدة.

وأخذ قلب «تختخ» يدق سريعًا ... ماذا خلف هذا الرجل؟ وهل وجوده في هذا المكان له علاقة باختفاء الرجال الخمسة ... ثم اختفاء «رضوان» و«محب» ... وأحسَّ بالألم العميق وهو يتذكَّر «محب» ... أين هو الآن؟

وسار الرجل حتى قطع نصف الدائرة ... ومرَّ بالقرب من «تختخ» الذي أخذ يربت على ظهر «زنجر» حتى يبقى ساكنًا، ويرقب الرجل في نفس الوقت ... وكان الرجل ملثَّمًا لا يبدو من وجهه سوى عينَيه ... وهو يهتز أمامًا وخلفًا مع اهتزاز الجمل الضخم الذي كان يركبه ... ولاحظ «تختخ» أن الجمل يحمل خرجَين على جانبَيه ... وأنهما منتفخان، ممَّا يُرجِّح أن الرجل يحمل طعامًا إلى مكان قريب.

وعندما مرَّ الرجل الملثَّم ... وبدأ يبتعد، برز «تختخ» من مكانه ... ونزل بهدوء إلى ساحة التماثيل، وأخذ يتبع الرجل محاذرًا ... ووجده يدور مع قاعدة تلٍّ ضخم من الرمال والصخور ... فدار معه ... ووجد خط سيره يضيق تدريجيًّا، ثم حدثَت المفاجأة الثانية ...

سمع «تختخ» صيحةً من بعيد ... وانكمش مكانه ... وسمع الرجلَ الملثَّم يرد على الصيحة بصيحة مثلها ... وعرف أنها صيحة إنذار ... وأن هناك حرسًا على المنطقة.

لم يدْرِ «تختخ» إذا كانَت الصيحة تعني أنهم رأوه ... أو أنها نوع من كلمة السر ... فبقي في مكانه فترة، ثم عندما لم يحدث شيء وقف ... وأخذ يتبع آثار الجمل الواضحة في الرمال ... حتى أشرف على نهاية قاعدة التل، وتوقَّف قليلًا يبحث عن شيء يختفي خلفه ... ووجد صخرةً ضخمةً بارزةً تُمثِّل ساترًا ممتازًا له، فزحف حتى أصبح خلفها وانتظر لحظات، ثم رفع رأسه ونظر ... ووقع بصره على أغرب مشهد رآه في حياته ... مشهدٍ لم يخطر له على بال!

كان المشهد عبارةً عن واحة صغيرة، نبتَت فيها أشجار الفاكهة، ويُحيط بها عدد من الخيام الكبيرة ... كلها بيضاء عدا خيمة واحدة صفراء أكبر من مثيلاتها ... وكانَت الواحة

مختفيةً تمامًا خلف التلال الصخرية العالية حتى تبدو مكانًا خفيًّا لم يصِل إليه أحد من قبل ... ولولا أن «تختخ» كان متأكِّدًا أنه يقظ تمامًا لظن مرةً أخرى أنه يحلم ...

وتوالَت المفاجآت ... ظهر «محب» ... كان يمشي ممزَّق الثياب مربوط اليدَين خلف الظهر ... وحوله رجلان مسلَّحان ... وأحسَّ «تختخ» بالدم يندفع في رأسه ... وكاد يصيح بأعلى صوته مناديًا صديقه العزيز ... ولكن ذلك كان معناه القضاء على «محب» وعليه أيضًا.

كان «محب» خارجًا من إحدى الخيام البيضاء متجهًا إلى الخيمة الصفراء ... التي كان واضحًا أنها خيمة الزعيم، أو الجهة التي تحكم الواحة ... كان «تختخ» على استعداد لأن يفعل أي شيء في العالم ليُبلِّغ رسالةً إلى «محب» ... ولكن كيف؟!

لم يكن ذلك ممكنًا أبدًا ... فظلَّ جالسًا مكانه ينظر إلى «محب» وهو يسير متعبًا حتى دخل إلى الخيمة الصفراء ودخل معه الحارسان.

أخذ «تختخ» يرقب المشهد ... كان واضحًا أن الخيام ليسَت مُقامةً من فترة طويلة، وكانَت هناك حراسة واضحة على مداخل الساحة ... وفي الوسط كان ثمَّة قدور كبيرة بها طعام وقد أُوقدت تحتها نيران من الحطب الجاف، ووقف بعض الرجال يتولَّون عملية الطبخ ... وأحسَّ «تختخ» بالجوع والعطش ... ونظر إلى «زنجر»، كان قابعًا تحت قدمَيه ساكنًا ... كأنما يُفكِّر في هذه المغامرة العجيبة ... كيف بدأَت ... وكيف تنتهي؟!

كان على «تختخ» أن يُفكِّر بسرعةٍ فيما يفعل ... هل يعود إلى الطائرة توًّا؟! ولكن هل في الطائرة ما يُساعده على إنقاذ «محب» وبقية الرجال الذين رجح أنهم هم أيضًا قد وقعوا في أيدي هؤلاء الأعراب؟ ... وهل فيه من القوة ما يُساعده على الوصول إلى الطائرة؟

فإذا لم يكن سيعود إلى الطائرة فماذا يفعل؟

لقد أخذَت الشمس ترتفع، وبدأَت الحرارة تشتد ... وقبل أن يُقرِّر شيئًا ظهر «محب» عائدًا بين حارسَيه، واتجه إلى خيمةٍ في طرف الساحة ... ثم ظهر المهندس «رضوان» بعد ذلك مُتجهًا إلى الخيمة الصفراء ... كان واضحًا أن ثمَّة استجوابًا يدور في الخيمة الصفراء ... وأنه لا بد تمَّ قبل ذلك مع الطيار «حسني»، ومع المستر «كوكس»، ومع العُمَّال الثلاثة ... وربما أدَّى هذا الاستجواب إلى ذهاب الأعراب إلى الطائرة للقبض على «نوسة» و«لوزة» أيضًا.

ولكن ماذا يُريد هؤلاء الأعراب بالضبط؟

هذا هو السؤال الذي تصعب الإجابة عليه.

أخذَت هذه الخواطر تدور برأس «تختخ» وهو جالس مكانه ... وقرَّر أن يفعل شيئًا ... ولم يكن ذلك ممكنًا إلا بعد هبوط الظلام.

استلقى مكانه يُفكِّر في خطته ويُدبِّر، والوقت يمضي بطيئًا ... والشمس تُصليه نيرانًا حاميةً فيتنقَّل من مكانه إلى الظل ... ولكن الرمال التي سخنَت تلسعه ... وبين لحظة وأخرى ينظر إلى «زنجر» وقد تدلَّى لسانه من العطش.

ودارَت الشمس في السماء، وبدأَت رحلة المغيب وهو يرقب الساحة التي أمامه بين فترة وأخرى ... ولاحظ انعدام الحركة في ساعات الظهيرة ... ثم عودتها في المساء ...

وأخيرًا ... بعد أن تعذَّب خلال ساعات النهار الطويل، غربَت الشمس ... وبدأ الجو يبرد ... ثم هبط الظلام ... وانتظر «تختخ» حتى أشرفَت الساعة على العاشرة ليلًا ... وهدأَت الحركة، ثم بدأ يتحرَّك ...

لقد أدرك من مراقبته الطويلة أن «محب» و«رضوان» في الخيمة التي في طرف الساحة ... وربما كان بها «كوكس» و«حسني» وبقية الرجال ... وكان عليها حارسان مسلَّحان. دار «تختخ» دورةً واسعةً حول التلال الصخرية حتى نقطة مُعيَّنة حدَّدها خلال النهار، ثم بدأ يقترب من الساحة الواسعة عند طرفها البعيد حيث توجد خيمة الأسرى من زملائه ...

اقترب من الخيمة زاحفًا ... كان يُدرك أن أي خطأ يمكن أن يُؤدِّي إلى كارثة ... وبعد بضع دقائق وجدَ نفسه عند الجانب الخلفي من الخيمة ... وفكَّر لحظات ... ثم مدَّ يده بهدوء وأخذ يرفع قماش الخيمة تدريجيًّا ... ثم مدَّ رأسه ونظر داخل الخيمة ... كان الظلام دامسًا ... ولا شيء يُمكنه رؤيته، ... فقال هامسًا: «محب»! ... كان صوته خشنًا من أثر العطش ... حتى هو نفسه لم يتعرَّف عليه ... بقلبٍ فرح سمع «محب» يُجيب: «توفيق»!

ولكن أحدًا لم يتحرَّك لمساعدته في الدخول ... وعرف أنهم مُقيَّدون، فأخذ يُحاول توسيع الفتحة ... واستطاع بعد جهد أن يدخل ... وأخذَت عيناه تألفان الظلام ... وشاهد الرجال الخمسة و«محب» وقد تكوَّموا في وسط الخيمة، ومدَّ يده وأخذ يُحاول فكَّ الحبال الليف الخشنة التي قُيِّدوا بها ... كانت مُهمَّةً شاقة ... ولكنه لم يكَد يفك أول عقدة حتى اشترك الرجال في فك بقية القيود.

في دقائق قليلة تمَّ تحرير الرجال من قيودهم دون كلمة ... فقد كانَت همسة واحدة كافية لدخول الحارسَين ... وأخذ الرجال يتسلَّلون من الفتحة التي دخل منها «تختخ»،

وبعد لحظات كان «كوكس» و«رضوان» و«محب» وأحد العُمَّال خارج الخيمة ... وفي هذه اللحظة سمعوا صوتًا يُنادي ... ثم صوت طلقةٍ في الهواء ... وأدركوا أن هروبهم قد انكشف.

قال «تختخ»: اجروا!

وجرَوا جميعًا في اتجاه الصخور ... وانطلقَت الرصاصات تشق الظلام ... وعلى ضوء النجوم والقمر البعيد بدأَت أشباح الأعراب تُغادر خيامها ... وبدأَت مطاردة عنيفة بين الصخور والرمال ... وصوت طلقات الرصاص يُمزِّق صمت الصحراء الساكنة.

رسالة إلى من يأتي

كان «تختخ» مرهقًا ... ولم يكُن في استطاعته أن يجري طويلًا ... خاصةً وخلفه هؤلاء الأعراب الذين يجرون كالشياطين في الرمال ... وخطرَت في باله فكرة نفَّذها على الفور ... قرَّر أن يعود إلى الخيمة ويختفي فيها ... إن أحدًا لن يتصوَّر أبدًا أنه ممكن أن يعود إلى الخيمة ... ونفَّذ فكرته على الفور ... ولكنه لم يكَد يقترب حتى برز له رجل من بين الصخور ... رجل من الملثَّمين يحمل بندقيةً سدَّدها إلى صدر «تختخ» قائلًا: قِف مكانك!

ووقف «تختخ» مكانه ... ولكن في هذه اللحظة ... انطلق من بين الصخور جسم كالصاروخ انقضَّ على الرجل من الخلف ... وسقطا معًا على الأرض ... ولم يكن هذا إلا «محب» ... وسرعان ما كان «تختخ» يشترك في الصراع ... واستطاع أن يصل إلى البندقية التي سقطَت بعيدًا، وبضربةٍ واحدةٍ من قاعدتها الخشبية على رأس الرجل ... انهار ساكتًا على الرمال.

وقال «محب»: إنني أعرف مكان الإبل ... إنها الطريقة الوحيدة لإنقاذنا.

تختخ: أين هو؟

محب: إنه في الجانب الآخر من الواحة.

تختخ: وكيف سنمر في الواحة؟

محب: جاءتني فكرة!

وانحنى على الرجل الملثَّم وخلع عمامته الواسعة ... ثم خلع جلبابه الأبيض ... ولبسهما بسرعةٍ فائقة ... كانَت الملابس مُتسعةً نوعًا، ولكن كان من الصعب رؤية ذلك في الظلام.

قال «محب»: والآن ... أنت أسيري ... سر أمامي!

وسار «تختخ» أمام «محب» الذي حمل البندقية وتبعه ... وخلفهما مشى «زنجر» مختفيًا في الظلام.

كانَت حالة من الهرج والمرج قد سادَت الواحة ... وكل واحدٍ يجري في اتجاه ... وصوت طلقات الرصاص ينبعث بين لحظة وأخرى ... فمشَوا سريعًا حتى وصلوا إلى مكان الإبل ... التي كانَت تجلس تمضغ طعامها في هدوء.

قال «تختخ»: إن ركوب الناقة أمر صعب.

محب: فلْنركب الصعب ... هربًا ممَّا هو أصعب منه!

واختارا ناقتَين صغيرتَين ... ووضعا عليهما الركَّاب ... ثم قفز كلٌّ منهما على ظهر واحدة ... وفوجئ «تختخ» بـ «زنجر» يقفز خلفه ... وابتسم لأول مرة، لقد كان «زنجر» متعبًا ومصابًا في نفس الوقت.

وانطلقَت الناقتان مسرعتَين ... اجتازتا دائرة التلال، ثم دخلتا في نفق، ووجد «محب» و«تختخ» نفسَيهما في ظلام دامس ... أين ينتهي النفق؟

مضَت الناقتان مسرعتَين ... كان واضحًا أنهما تعرفان طريقهما جيدًا ... وظلَّ «تختخ» و«محب» يتساءلان عن نهاية هذا النفق ... حتى بدَت من بعيد نيران موقدة، وأدركا أنهما مُقبلان على منطقة حراسة ... ولم يكن هناك وقت للعودة ... وكانَت البندقية ما زالَت في يد «تختخ»، فأعدَّها للإطلاق.

اقتربَت الناقتان من فتحة النفق ... وظهر رجل على ضوء النيران كالشبح ... وفي يده بندقية ... ولكن كان يضعها بجانبه ولا يرفعها ... وزاد اقتراب الناقتَين من فتحة النفق ... وأمسك «تختخ» بالبندقية من الماسورة ... وكان الحارس يقف جانبًا ... ومن المؤكَّد أنه سيرى «تختخ» وسيعرف أنهما هاربان ... ولم يكن هناك وقت لغير شيء واحد ... أن يضربه بطرف البندقية على رأسه ... وقد كانَت في متناول يده.

اقتربَت ناقة «تختخ» من الرجل الذي أخذ يُحدِّق في الظلام ... وضوء النيران يغشى عينَيه ... وفي اللحظة التي تبيَّن فيها شخصية «تختخ» وحاول رفع بندقيته، كان «تختخ» قد نزل على رأسه بضربةٍ أسكتَت حركته.

خرجا من النفق ... ووجدا نفسَيهما مرةً أخرى تحت سماء مُرصَّعة بالنجوم ... وقد هدأ كل شيء ... وقال «محب» بصوت مرتفع: يبدو أنه المدخل الثاني للواحة.

تختخ: ماذا حدث لكَ أنت والمهندس «رضوان»؟

محب: لقد افترقنا كما تعرف ... وعندما أصبحتُ وحدي أخذتُ أبحث عنك!

تختخ: وأنا أيضًا بحثتُ عنك.

محب: وفي لحظة وجدتُ نفسي أمام بندقية مصوَّبة إلى صدري وأَمْرٍ بالسير إلى الواحة.

تختخ: لقد رأيتُك صباح اليوم وأنتَ تدخل الخيمة الصفراء.

محب: نعم ... كنتُ أتعرَّض لاستجواب عن سبب حضوري إلى هذا المكان.

تختخ: وهل صدَّقوا حكاية الطائرة؟

محب: لا أدري ... إنهم على درجة كبيرة من الذكاء والحذر.

تختخ: هل هم مصريون؟

محب: لا ... إنهم من أعراب «الطوارق» ... وهم أعراب يعيشون في الجزء الجنوبي من الجزائر والمغرب.

تختخ: وما سبب وجودهم هنا؟

محب: لا أدري ... ولكن يبدو أنهم يبحثون عن شيء ما في هذا الوادي ... فقد فهمتُ أنهم يحفرون بين فترة وأخرى، ويُقيمون هنا فترةً من الوقت، ثم يعودون إلى موطنهم الأصلي.

ساد الصمت بعد هذا الحديث ... ثم قال «محب»: ماذا سنفعل الآن؟

تختخ: لا أدري ... ليس أمامنا إلا العودة إلى الطائرة ... ثم إنني مرهق جدًّا، وجائع جدًّا، ولا أستطيع عمل أي شيء إلا بعد أن آكل وأرتاح.

مضت الناقتان ... ولم يكن «محب» و«تختخ» يعرفان أين تتجهان، وفكَّر «تختخ» أنه من الممكن أن تمضيا بعيدًا عن اتجاه الطائرة ... فالتفتَ إلى «زنجر» الذي كان قابعًا خلفه وقال: «لوزة» ... «لوزة» ... يا «زنجر»!

وزام الكلب الأسود ... ولكنه لم يتحرَّك ... ومضت الناقتان ... وبعد نحو ربع ساعة عاد «تختخ» يقول: «لوزة» ... «لوزة» ... يا «زنجر»!

في هذه المرة استجاب الكلب الأسود ... ونزل مستخدمًا ساق الناقة الخلفية إلى الأرض ... ثم مضى يسبق الناقتَين رغم تعبه ... وبين فترة وأخرى يُعلن عن اتجاهه بالنباح ... ومضَت نصف ساعة أخرى ... وقد أحسَّ «تختخ» أنه سيسقط من على ظهر الناقة إلى الأرض ... فقد كان جسده كله ينضح بالتعب، خاصةً وأنه يتثنَّى أمامًا وخلفًا طول الوقت مع اهتزاز الناقة ... وأخذ يُقاوم النوم العنيف الذي هبط عليه ... ولكن فجأةً فتح عينَيه على آخرها ... فقد شاهد هيكل الطائرة الأسود ... رابضًا على أديم الصحراء. ودقَّ قلبه سريعًا ... فسوف يلتقي الآن بـ «نوسة» و«لوزة» ... ويأكل وينام.

اقتربا من الطائرة ... لم يكن هناك أثر لأي صوت ... وأحسَّ «تختخ» بقلق ... ماذا حدث لـ «نوسة» و«لوزة»؟

أناخا الناقتَين ... فنزلا وربطاهما ... ثم أسرع «محب» يصعد سلالم الطائرة صائحًا: «نوسة» ... «لوزة» ... «عاطف»!

ولكن لم يكن هناك أي أثر للفتاتَين ولا لـ «عاطف» ... وكان «تختخ» يصعد سُلَّم الطائرة مجهدًا عندما وجد «محب» يقف أمامه قائلًا: لا أثر للفتاتَين ولا لـ «عاطف»!

لم يردَّ «تختخ» ... بل سار متثاقلًا داخل الطائرة وهو يستند بيدَيه على المقاعد حتى لا يسقط ... كان يعرف مكان مخزن الطعام ... فمدَّ يدَيه يبحث عن أي شيء، ووجد بعض الخيار وعلب اللحم المحفوظ ... فسلَّم علبةً منها إلى «محب» قائلًا: افتح هذه لـ «زنجر»؛ إنه مثلنا يكاد يموت جوعًا.

وأمسك «تختخ» بثمرة من ثمار الخيار وأخذ يقضمها في نهَم ... كان فمه متصلِّبًا من الجوع والعطش ... وكانَت هذه الخيارة بمثابة طعام وشراب معًا ... وأمسك بثمرة خيار ثانية ... ولكنه لم يستطِع إكمالها ... فقد سقط على الأرض ... وذهب في سُبات عميق.

وقف «محب» وحيدًا في قلب الطائرة المظلم ... وأخذ يتلفَّت حوله ... وهو يستمع إلى صوت أنفاس «تختخ» و«زنجر» الذي استسلم هو الآخر للنوم، وأخذ «محب» يبحث هنا وهناك حتى وجد إحدى البطاريات، وضغط على زرها فأطلقَت ضوءًا خافتًا ... كان واضحًا أن البطاريات قاربَت النفاد، ولكن المهم الآن أن يبحث عن آثار «نوسة» و«لوزة» و«عاطف» أين ذهبوا، و«نوسة» قدمها مُتورِّمة ... ولا تستطيع السير طويلًا! أخذ يُجيل الضوء هنا وهناك ... وفجأةً وقع الضوء على ورقةٍ معلَّقةٍ على باب غرفة القيادة ... كان واضحًا أنها وُضعت في هذا المكان ليراها من يدخل ... وأسرع إليها ... وانتزعها، ومع الضوء الضعيف أخذ يقرأ:

> إلى «تختخ» ... أو «محب» أو أيٍّ من الأصدقاء ركاب الطائرة ... لقد استطاعَت إحدى طائرات الإنقاذ أن تجد طائرتنا ... ولم يكن في إمكانها الهبوط، فاتصلَت بمطارٍ حربي قرب أسيوط حيث حضرَت طائرة هيليكوبتر ونزلَت.
>
> لقد قام رجال القوات الجوية بإصلاح اللاسلكي ... وسيتم الاتصال بكم مرةً كل ساعتَين ... فانتظروا الرسالة ... وستقوم دوريات استطلاع جوية بالبحث عنكم، حيث تمَّ الاتصال بمعسكر البترول ... وبواحة «سيوة» ... ولم يكن أحدٌ منكم قد وصل إلى هناك.
>
> سنعود بالطائرة الهيليكوبتر إلى القاعدة الحربية ... لأن قدم «نوسة» في حالة سيئة ... وقد نعود بالطائرة إلى معسكر البترول إذا أمكن.

تحياتي وتحيات «نوسة» و«لوزة» إلى من تصله هذه الرسالة منكم، وأرجو أن تكونوا في خير.

««عاطف» ... الساعة الثانية والنصف بعد الظهر»

ارتمى «محب» على أحد المقاعد وقد أحسَّ براحةٍ عميقة ... لقد تمَّ إنقاذ «نوسة» و«لوزة» و«عاطف» ... أمَّا هو و«تختخ» فسيجدان وسيلةً للذهاب إلى معسكر البترول ... أو تأتي إحدى طائرات الهيليكوبتر لإنقاذهما ...

وفجأةً زايله الارتياح ... فقد تذكَّر المهندس «رضوان» و«كوكس» والطيار «حسني» والعُمَّال الثلاثة ... ماذا حدث لهم؟ وهل أصابَت نيران «الطوارق» أحدًا منهم؟ وهل يوقظ «تختخ» ويخبره بهذه الرسالة؟

وقبل أن يُواصل تفكيره كان قد استولى عليه النعاس، فنام وهو جالس على مقعده ... وسقطَت الورقة منه على أرض الطائرة ...

المحاولة الأخيرة

استيقظ «تختخ» وضوء الفجر يغمر الصحراء ... وسمع صوتًا ما يصدر من غرفة قيادة الطائرة ... خُيِّل إليه في البداية أنه يحلم ... ولكن الصوت كان واضحًا جدًّا ... صوت صغير مُتقطِّع ... صوت اللاسلكي ...

أسرع «تختخ» وهو لا يُصدِّق أذنَيه إلى غرفة القيادة ... وجد «محب» ما زال نائمًا في كرسيه وقد تدلَّى رأسه جانبًا وارتفع صوت تنفُّسه ... ولم يلحظ «تختخ» أن «زنجر» لم يكن موجودًا إلا عندما وصل إلى جهاز اللاسلكي، وأخذ السمَّاعتَين وبدأ يضعهما على أذنَيه ... سمع صوت الكلب المغامر ينبح نباحًا شديدًا خارج الطائرة، ثم سمع طلقة بندقية ... وابتعد صوت «زنجر».

جُنَّ جنون «تختخ»؛ فقد كان هذا يعني إصابة «زنجر» بالرصاصة، فترك جهاز اللاسلكي يدق وأسرع إلى باب الطائرة ينظر ماذا حدث ... وفوجئ ضمن سلسلة المفاجآت التي مرَّ بها في هذه المغامرة بأكثر من عشرة من «الطوارق» يُحيطون بالطائرة وهم شاهرون أسلحَتهم ... ومعهم «كوكس» و«رضوان»!

صاح أحد «الطوارق»: سلِّم نفسك ولا داعي للمقاومة!

قال «تختخ»: ماذا تُريدون منا؟! ... إننا لم نفعل شيئًا يضايقكم!

وصاح «الطارقي»: لقد دخلتُم وادي المساخيط ولا أحد غيرنا يدخله حيًّا ثم يعيش بعد ذلك!

وادي المساخيط ... رنَّت الكلمتان في أذن «تختخ» رنينًا مزعجًا ... ماذا يعني هذا الرجلُ بوادي المساخيط هذا؟!

عاد «تختخ» يقول: إننا لم نقصد بكم شرًّا!

قال الرجل: قلتُ لكَ سَلِّم نفسكَ أنتَ وزميلك!

وأحسَّ «تختخ» بالسخط؛ فقد تمنَّى أن يظنوا أنه وحده ليتركوا «محب»، ولكن كان واضحًا أنهم شاهدوا الناقتَين وعرفوا أن هناك اثنَين في الطائرة. أخذ «تختخ» يُفكِّر في المقاومة؛ فمعه البندقية ويمكن أن يُغلق باب الطائرة فجأةً ويدخل، وعن طريق جهاز اللاسلكي يمكنه الاتصال وطلب النجدة ... ولكنه لم يكن يعرف مصير «نوسة» و«لوزة»؛ فلم يكن قد رأى الرسالة بعد ...

وكأنما أدرك الطارقي ما يُفكِّر فيه فصاح: إذا حاولتَ أن تفعل أي شيء فسوف نقضي على هذَين الرجلَين.

وتأكيدًا لتهديده فقد رفع البندقية ووضعها لصق رأس «رضوان»، فلم يسع «تختخ» إلا أن يقول له: سأنزل بعد أن أوقظ زميلي.

واستدار «تختخ» داخل الطائرة ولدهشته لم يجد «محب» مكانه ... مرَّت لحظات، ثم وجد «محب» يخرج من غرفة القيادة وقد بدَت عليه ملامح الجد الخالص ... قال «تختخ»: هل اتصلت؟

محب: نعم ... وقلتُ لهم على الموقف ... وستتحرَّك طائرة هيليكوبتر فورًا في اتجاهنا.

تختخ: هيا بنا ... إنني أُريد أن أرى ماذا حدث لـ «زنجر»!

ونزل الصديقان سُلَّم الطائرة ... وتلفَّت «تختخ» حوله وعلى مبعدة وجد «زنجر» يقف وحيدًا في ضوء الفجر الشاحب، فنادى: «زنجر» ... «زنجر»!

وأسرع الكلب عائدًا.

أشار الطارقي إلى «تختخ» و«محب» فركبا الناقتَين اللتَين أتيا بهما، ثم سارت القافلة ... وسمع «محب» الذي كان قريبًا من «كوكس» صوت «كوكس» يتحدَّث بالإنجليزية متسائلًا عن مصيرهم ... فطمأنه «محب» أن طائرة هيليكوبتر في الطريق إليهم.

سارَت القافلة مسرعة ... مضَت ساعة ... ثم ظهرَت التلال الحمراء مرةً أخرى ... وعندما اقتربوا من الواحة ... وجدوا أن «الطوارق» قد استعدُّوا للرحيل؛ فقد طُويَت الخيام ... ووقف صف طويل من الجمال والنياق ... وفي وسط كل هذا برز رجل يركب جملًا شديد البياض ... كان الرجل طويل القامة ... ورغم اللثام الذي يضعه على وجهه كالجميع فقد برز شاربه ... ووضح ما هو أشد غرابةً من أي شيء في العالم ... كان الرجل لونه أزرق ... ليس شديد الزُّرقة ... ولكنه أزرق شاحب خفيف ... وكان يجلس كأنه واقف لفرط طوله ... وقد تدلَّت من جانبه بندقية سريعة الطلقات ... كان من الواضح أنه زعيمهم ... فقد كانوا ينظرون إليه جميعًا باحترام.

رفع الزعيم ذراعه إلى أعلى، ثم أشار إلى الأمام ... وتحرَّكَت القافلة ... وأحسَّ «تختخ» بالسعادة أن وجد الطيار «حسني» والعُمَّال الثلاثة معهم ... لقد كانوا ثمانية، وفي إمكانهم بمساعدة بسيطة أن يفعلوا شيئًا ... ولكن من أين تأتي المساعدة إلا من الطائرة الهيليكوبتر ... وهل تتمكَّن من العثور عليهم في الصحراء الواسعة وهي لا تعرف اتجاههم؟!

كانَت خواطر «محب» تسير في نفس الاتجاه ... ولاحظ أنهم يسيرون في شِبه دائرة، يُحيط بهم «الطوارق» ببنادقهم المشرعة في الهواء ... وفي المقدمة الزعيم وحوله حُرَّاسه ... وفي الخلف كانَت النياق التي تحمل الخيام والمؤن ... وكانوا يسيرون بين صفوف التماثيل الحجرية الصامتة ... وبين كل سبعة تماثيل كانت تبدو فتحة في التلال الصخرية ... كأنها باب معبد قديم ... ولم يشكَّ «محب» لحظةً واحدةً أن حضور هؤلاء «الطوارق» من مكانهم البعيد إلى وادي المساخيط كان للبحث عن كنوز أو آثار قديمة ... وأن حرصهم على ألَّا يعرف أحد غيرهم هذا المكان يدل على أهمية ما يبحثون عنه.

غادرَت القافلة وادي المساخيط ... ومرَّت في النفق، ثم دخلَت في وادٍ عميقٍ به آثار سيول قديمة.

أدرك «تختخ» أن هؤلاء «الطوارق» يعرفون طريقًا لا يعرفه أحد ... وأنهم وحدهم هم الذين يعرفون طريق وادي المساخيط ... وعندما مرَّت الساعات دون أن تظهر الطائرة الهيليكوبتر في الجو ... أدرك أنها لن تلحق بهم ... وأنهم سوف يختفون في الصحراء الواسعة إلى الأبد دون أن يعرف أحد طريقهم.

نظر «تختخ» إلى المهندس «رضوان» الذي كان يحمل حقيبته الصغيرة، ثم نظر إلى «كوكس» ... وأدهشه الابتسامة التي كانَت مرتسمةً على شفتَيه ... ثم إلى الطيار «حسني» الذي كان ينظر حوله ... والتقَت نظراتهما ... وكان واضحًا أن الطيار الشاب يُفكِّر كما يُفكِّر «تختخ» بالضبط ... لا بد من تصرُّف سريع ... فكلما أوغلوا في الصحراء بَعُد احتمال نجاتهم من أيدي «الطوارق» ...

أخذ «تختخ» يُفكِّر في خطةٍ سريعة للإنقاذ ... ولكنه كان متأكِّدًا أنه في وضح النهار وفي ظل البنادق المشرعة في الهواء، فإن أية محاولة للهرب معناها الموت السريع؛ فلا بد من الانتظار حتى هبوط الظلام ...

ظلَّت القافلة تسير حتى انتصف النهار ... ثم انحرفَت الشمس ... وارتفعَت يد الزعيم للتوقُّف ... وكان واضحًا أنهم يقصدون مكانًا مُعيَّنًا ... فقد برزَت من قلب الصحراء الصفراء بعض الأعشاب الخضراء ... ثم انحرفوا خلف تلٍّ مرتفع ... وتوقَّف الجميع ...

ونزل بعض الرجال مسرعين ... وأخذوا يرفعون بعض جذوع الأشجار ... وسرعان ما بدا تحتها بئر ماء ...

نُصبَت خيمة الزعيم الصفراء بسرعة ... ولم تُنصب الخيام الأخرى ... وأُوقفَت الإبل في ظل التل ... ثم بدأ إعداد الطعام.

جلس الأسرى جميعًا معًا لأول مرة ... «كوكس» و«رضوان» و«حسني» والعُمَّال الثلاثة و«محب» و«تختخ» ... وقبع بجوارهم «زنجر»، كان الكلب الأسود يلهث من فرط الحرارة والعطش ... ولا بد أنه لام نفسه لأنه كان السبب في كل ما حدث ... فهو الذي عثر على المنديل الأحمر ... وبعد العثور على المنديل تطوَّرَت الأحداث بهذا الشكل المحزن، ووقع الجميع في الأسر.

كان بعض الحُرَّاس يُحيطون بالأسرى ... ولكن على مبعدة منهم ... ومع ذلك قرَّر «تختخ» أن يتحدَّث بالإنجليزية فقال: إننا في موقف خطير ... ولا بد من وضع خطة للهرب.

ردَّ «كوكس» سريعًا: ولماذا نهرب؟ إنني أُريد أن نستمر ونذهب مع هؤلاء الناس إلى حيث يعيشون ... فإذا ما عُدت إلى بلادي ... كتبتُ عن هذه المغامرة.

قال «تختخ»: هذا إذا عُدتَ يا مستر «كوكس»!

كوكس: ولماذا لا أعود؟

تختخ: لا أدري، ولكن لعل هؤلاء «الطوارق» يتخلَّصون منا بأسرع ممَّا تتوقَّع.

ساد الصمت لحظات، وقال الطيار «حسني»: المهم ماذا نفعل؟

تختخ: لقد فكَّرتُ أنه إذا هبط الظلام ... فربما أمكننا عمل شيء!

تدخَّل «رضوان» في الحديث لأول مرة فقال: إن معي في هذه الحقيبة بعض أصابع الديناميت ... وهو نوع جديد شديد الانفجار ... أحضرتُه معي لتجرِبته ... وربما ينفعنا.

كان هذا الخبر بالنسبة لـ «تختخ» أهم ما سمع منذ قُبض عليهم ... إن معهم ديناميت ... وهذا يعني أشياء كثيرة، فقال: كيف يمكن تفجير هذا الديناميت؟

رضوان: هناك جهاز خاص للتفجير ... ولكنه للأسف ليس معي ... ولكن ممكن تفجيرها بالنار، وإن كنا في هذه الحالة لا نستطيع التحكُّم في الانفجار!

تختخ: على كل حال ... إن هذا سلاح يجب أن نُحسن استخدامه ... فهو سلاحنا الوحيد، وعلينا أن نُفكِّر في أفضل وسيلة لاستخدامه.

اقترب بعض الرجال من الأسرى ... فتوقَّفوا عن الحديث ... كانوا يحملون الطعام لهم ... وكانوا جوعى ... فانهمكوا في الطعام فورًا ... واقتطع «تختخ» جزءًا من اللحم ناوله

لـ «زنجر»، وعندما انتهى الغداء طلب من الحارس السماح له بالذهاب إلى البئر ليتمكَّن «زنجر» من الشرب ... فتبعه الحارس ... وسار «تختخ» حتى وصل إلى البئر، وأخذ ينفح منه حتى شرب «زنجر» وارتوى ... وأخذ يلعق يدَي «تختخ» في حب ... وعادوا إلى حيث الأسرى.

بعد لحظات من انتهاء الطعام طلب أحد الحُرَّاس من المهندس «رضوان» أن يتبعه ... وشاهده الزملاء وهو يسير إلى الخيمة الصفراء ... وأدركوا أنه استُدعي لمقابلة الزعيم. أخذَت الخواطر تبرق في رءوس الأسرى ... ما سبب دعوة «رضوان» لمقابلة الزعيم؟

كانَت الإجابة عسيرة ... ولكن كما فكَّر «تختخ» ... لا بد تتعلَّق بمصيرهم.

ولم يغِب «رضوان» طويلًا، وشاهدوه وهو عائد من الخيمة ... كان يبدو عليه أنه مستغرق في تفكير عميق.

قال «رضوان» عندما جلس بينهم: سيتركوننا هنا!

حسني: ماذا ... سيُفرجون عنا؟!

رضوان: نعم ... ولكن سيتركوننا في هذا المكان البعيد ... ومن المؤكَّد أننا سنهلك جوعًا ... فنحن لا نعرف أين نحن في هذه الصحراء المترامية، ومن المؤكَّد أنهم واثقون أننا لن نصل إلى أي مكان ... وأننا سنهلك في هذا المكان.

ساد الصمت بين مجموعة الأسرى ... كان الخبر صاعقًا وقاسيًا ... لقد جاءَت النهاية أسرع ممَّا توقعوا ... ونظر «تختخ» إلى «كوكس»، وأدرك «كوكس» أن «تختخ» كان على حقٍّ عندما توقَّع هذه النهاية.

وأخذ «محب» يُفكِّر ... إنهم إمَّا أن يهلكوا جوعًا في هذا المكان ... وإمَّا أن يَهيموا على وجوههم في الصحراء ... ويموتوا عطشًا وجوعًا ... أو بأنياب الذئاب ... ويا لها من نهاية مفجعة في جميع الأحوال!

واستغرق كلٌّ منهم في خواطره ... ومضى الوقت سريعًا هذه المرة ... وهبط المساء، وقال «تختخ» للمهندس «رضوان»: هل يمكن أن تُناولني أصابع الديناميت؟

رضوان: وماذا ستفعل بها يا «توفيق»؟

تختخ: أظن أن من الأفضل محاولة إنقاذ أرواحنا بدلًا من الاستسلام لهذه النهاية البشعة.

ناوله «رضوان» أصابع الديناميت خِلسة ... وانتظر «تختخ» لحظات حتى بدأ الظلام يهبط ... وبدأَت القافلة تستعد للرحيل، ثم طلب شيئًا يُشعل به فتيل الديناميت، فأعطاه

«كوكس» ولَّاعته ... وكانَت القافلة قد تحرَّكَت ... وفي آخرها الإبل التي تحمل الخيام ... وفكَّر «تختخ» لحظات، ثم قال لـ «محب»: «محب»، أنت أسرع مني حركة ... أُريدك أن تقترب من إحدى الإبل وتُشعل الفتيل، ثم تضعه في إحدى الخيام المربوطة.

رضوان: وإلى أي شيء سيُؤدِّي هذا؟

تختخ: كم يستغرق اشتعال الفتيل؟

رضوان: حوالي عشر دقائق!

تختخ: عظيم ... هيا بنا يا «محب»!

وتحرَّك «محب» مستترًا بالصخور ... حتى أصبح خلف إحدى الإبل، وأشعل الفتيل، ثم وضع الديناميت وانسحب.

عاد «محب» إلى بقية الأصدقاء فقال «تختخ»: سنمشي على مبعدة منهم ... فإذا انفجر الفتيل فسوف تشرد الإبل وتجري في كل اتجاه ... فلْيحاول كلٌّ منا الإمساك بواحدة منها.

حسني: إنها مغامرة محفوفة بالمخاطر!

كوكس: ولكنها أفضل من البقاء والانتظار حتى الموت!

واستتروا بالصخور ... وأخذوا يتبعون الإبل على مبعدة ... ومضَت الدقائق ... وكلٌّ منهم ينظر إلى ساعته ... حتى إذا أوشك الديناميت على الانفجار ... استتروا بالصخور، وارتفع دوي الانفجار، فأشعل الظلامَ بالضوء، وصاحَت الإبل، وتفرَّقَت تجري في كل اتجاه ... فقد كان صوت الانفجار رهيبًا هزَّ الأرض ... وبدَّد الصمت بقوة.

أسرعَت بعض الإبل في اتجاههم ... وأسرعوا إليها، واستطاع أحد العُمَّال أن يمسك بناقة ... ثم «رضوان» ... ثم عامل آخر، ثم العامل الثالث ... ولم يستطِع الباقون الإمساك بشيء ... وحُلَّت المشكلة سريعًا ... فقد ركب كل اثنَين على ناقة ... وقفز «زنجر» مع «تختخ» خلف المهندس «رضوان» ... وانطلقَت الإبل تجري.

كان رجال القافلة مشغولين بما حدث ... فقد نفرَت الإبل جميعًا ... انطلقَت تجري في كل اتجاه ... وأخذوا يُحاولون السيطرة عليها ...

كانت الدقائق ... بل الثواني ... لها قيمتها ... وقاد الأصدقاء الإبل في الاتجاه المضاد للاتجاه الذي كانوا يسيرون فيه ... وأخذوا يستحثُّون الإبل بكل قواهم على الجري ... وبعد نحو ربع ساعةٍ كانوا قد ابتعدوا لمسافة كافية. وجاء دور الطيار «حسني» في هذه اللحظة؛ فهو الوحيد بينهم الذي يستطيع تحديد الاتجاه بقدرٍ من الدقة ... فأخذ ينظر إلى السماء ويُعدِّل خط سيرهم ... حتى إذا انتصف الليل ... وجدوا أنفسهم مرةً أخرى عند شبح

الطائرة الرابضة في الظلام ... وصاح «كوكس» مبتهجًا: لقد أصبح عندي مغامرة رائعة أرويها عندما أعود إلى بلدي.

وابتسم الجميع لأول مرة ... فقد أصبح احتمال إنقاذهم قريبًا ... وقد كان أقرب ممَّا تصوَّروا ... فعندما خطا الطيار «حسني» إلى الطائرة سمع جهاز اللاسلكي الصغير ... ولم يُصدِّق أذنَيه ... قفز إلى كابينة الطائرة ووضع السمَّاعة على أذنَيه وأخذ يتحدَّث ويتحدَّث ... يروي ما حدث ويستمع ... وعندما انتهى من حديثه خرج إلى الأصدقاء وقال: هناك طائرة هيليكوبتر في طريقها إلينا ... وستأتي الفتاتان الصغيرتان و«عاطف»، وستنقلنا الطائرة الهيليكوبتر إلى معسكر البترول ...

كوكس: ذلك شيء رائع ... ستُتم مُهمَّتنا أيضًا.

وجلس «تختخ» و«محب» يتحدَّثان ويبتسمان ... لقد مرَّا بمغامرةٍ رهيبةٍ لم يسبق أن مرَّا بمثلها ... ولكنهما كمغامرَين أثبتا قدرتهما على خوض الأخطار وفك الرموز والألغاز.

وقرب الفجر ... استيقظوا جميعًا على صوت الطائرة الهيليكوبتر التي بدأَت تحوم في الجو تختار مكانًا للهبوط ... وشاهد «تختخ» و«محب» صديقهما «عاطف»، ثم «نوسة» و«لوزة» يُشيرون بأيديهم، فرفعا أيديهما بالتحية ... إن كل شيء على ما يرام.


هنداوي